الصحافة المصرية في مائة عام

د. عبد اللطيف حمزة

الكتاب: الصحافة المصرية في مائة عام

الكاتب: د. عبد اللطيف حمزة

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

حمزة ، د. عبد اللطيف

الصحافة المصرية في مائة عام / د. عبد اللطيف حمزة

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٠ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٧٥٧ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٤٦٧ / ٢٠١٨

الصحافة المصرية في مائة عام

مقدمة

طلب مني أن أضع لها كتاباً عن الصحافة المصرية ، فبادرت بإجابة هذا الطلب، وقصرته على مائة حرصاً مني على أن أقدم للقراء خلاصة طيبة لقصة الكفاح الذي كتب على صحافتنا منذ نشأتها إلى أن بلغت حداً لا بأس به من النضج والكمال، وأصبحت قدوة حسنة لما ينبغي أن تكون عليه صحافة الشعوب التي تستكمل حريتها واستقلالها، ومثلاً يحتذى للصحافة التي تشارك بكل قوتها في بناء الأمم والأوطان.

ولقد بدا لي أن أقسم هذه السنوات المائة إلى أربع فترات سميت كل واحدة منها طوراً، وتحدثت عن كل طور منها على حدة ، على أن هذا التقسيم الذي لجأت إليه لا يعدو في الحقيقة أن يكون طريقاً من الطرق التي يصطنعها الباحثون عادة لتيسير الموضوع على القراء، وإلا فإن حياة الصحافة المصرية سلسلة متصلة الحلقات، حلقة الطفولة فيها تتداخل في حلقة الشباب. وهذه الحلقة الأخيرة تتداخل في بقية الحلقات، بحيث يصعب الفصل بينهما فصلاً صحيحاً بالأيام والسنوات.

لقد أتيحت لي هذه الفرصة الجميلة، لكي أتحدث إلى القراء في إيجاز عن تاريخ الصحافة المصرية، التي كُتبت باللغة العربية، وأنا أعتذر

إليهم، وإلى أصحاب الصحف القديمة والحديثة، حيث لم أستطع أن أشير إلا إلى النزر اليسير من الجرائد المكتوبة بالعربية. أما الجرائد التي ظهرت في مصر باللغات الأوروبية ، فقد حال بيني وبين الإشارة إليها ضيق المساحة لهذا الكتاب.

والله ولي التوفيق

عبد اللطيف حمزة

أطوار الصحافة المصرية

الطور الأول أو طور النشأة

(من سنة ١٨٢٨– إلى سنة ١٨٧٦)

الصحافة والمطبعة

لم يكن للحضارة الحديثة من نعمة أجل من نعمة المطبعة، ولم يكن للطبعة بعد ذلك من حسنة أفضل من الصحف والكتب.

ولقد قيل: إن الطباعة بالحروف العربية إنما دخلت مدينة القسطنطينية قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر بنحو خمس وسبعين سنة، أي أن الآستانة أسبق بلاد الشرق اتصالاً بالمطبعة، عرفتها على أيدي اليهود القاطنين بها، وذلك في غضون القرن الخامس عشر للميلاد.

ولقى إنشاء الطباعة بالحروف العربية مقاومة شديدة من رجال الدين في مدينة القسطنطينية. فقد أفتى هؤلاء بأنها رجس من عمل الشيطان. ثم توسط بعض العلماء بعد ذلك لدى السلطان فأذن بإنشاء المطبعة العربية، وقامت بطبع الكتب الدينية واللغوية.

وفي غير القسطنطينية من البلاد الإسلامية، كانت توجد مطبعة في مدينة (حلب) يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٠٢ ميلادية.

ومعنى ذلك باختصار: أن مصر كانت آخر بلاد الشرق معرفة بالمطبعة، لم تعرفها إلا على يد الحملة الفرنسية. غير أن مطبعة الحملة خرجت من مصر بخروج الجند الفرنسيين منها.

على أنه وإن كانت مصر آخر بلاد الشرق اتصالاً بالمطبعة، إلا أنها كانت بفضل الحملة الفرنسية أول بلاد الشرق معرفة بالصحافة، التي هي ثمرة من ثمرات المطبعة. غير أن الصحافة المصرية شيء، والصحافة الفرنسية التي صدرت في مصر شيء آخر. فلا يصح النظر إلى هذه الأخيرة على أنها مصرية صميمة، وإن كان المؤرخ مضطراً إلى النظر إلى تلك الصحف التي أصدرتها الحملة على أنها نقطة البدء في تاريخ الصحافة المصرية.

يقول الجبرتي في تاريخه عن صحف الفرنسية:

"إن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم، وأماكن أحكامهم، ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش ".

الصحافة الرسمية

ولدت الصحافة المصرية في حجور الحكام، وعاشت على أموالهم ونمت وترعرت بسلطانهم، وخضعت لتوجيهاتهم، ولم يكن لها يد من هذا الخضوع.

وتفسير هذه الظاهرة التاريخية بإيجاز: أنه منذ استقر الأمر لمحمد على في مصر، شرع يفكر في تنظيمها، وكان أمامه مثل واضح لهذا

التنظيم هو المثل الذي جرى عليه الحكم في أيام الحملة الفرنسية على مصر.

وكان من أخطر الأجهزة التي تألف منها نظام هذا الحكم جهازان كبيران:

أحدهما– خاص بدواوين الحكومة: وهي ما نعبر عنه اليوم باسم الوزارات.

ثانيهما– خاص بالصحافة: وهي يومئذ عبارة عن النشرات والدوريات.

وكما كان للفرنسيين كبير اعتناء بضبط الحوادث اليومية في دواوينهم، وأماكن أحكامهم على حد تعبير الجبرتي– فكذلك بدا للوالي الجديد أن تكون له مثل هذه العناية بهذه الأمور.

ولا يكون ذلك– كما دلت عليه تجربة الجنرال بونابرت– إلا عن طريق الصحف.

ومن ثم نشأت في مصر طائفة من الصحف المصرية سنذكرها إجمالاً على النحو الآتي:

جورنال الخديوي:

فرغ محمد علي من تنظيم الحكومة وإنشاء الدواوين في سنة ١٨١٣. فاحتاجت الشئوون المالية والزراعية والتعليمية والعمرانية إلى أن يكتب لها ملخص، أو تقرير يقدم إلى الوالي باسم "جورنال".

وكان الوالي ينتظره مرة في الشهر على الأقل، ثم رأى أن هذه المدة أطول مما ينبغي، فطلب أن يقدم إليه هذا التقرير كل أسبوع، ثم أصدر أمره إلى المسئولين أن يكونوا مستعدين لتقديمه في أي وقت يريده الباشا.

وأما الجهة التي يصدر عنها الجورنال فكانت تعرف باسم "ديوان الجرنال". وأما المطبعة التي تطبع فيها هذه الصحيفة فهي "مطبعة القلعة". وهي واحدة من مطابع تسع إستطاع محمد علي أن ينشئها في مصر.

وأما ناظر التقارير– أو بعبارة أخرى رئيس التحرير– فهو رجل يُدعى "محمود افندي"– كان من عمله أن يتلقى تقارير الأقليم في كل أسبوع، ثم يقوم بترتيبها وتنسيقها تمهيداً لعرضها على الباشا قبيل الطبع.

وأما عدد النسخ التي كانت تطبع من "الجورنال"، فلم تكن تتجاوز المائة. وكانت تصدر باللغتين التركية والعربية، ويشتمل على الأخبار الحكومية، وبعض قصص من ألف ليلة وليلة بقصد تشويق القراء.

والخلاصة: أن هذه الصحيفة الرسمية التي هي أقدم الصحف المصرية على الإطلاق كانت خاصة بالباشا أو الوالي. وكان يسمح بأن يطلع عليها نفر قليل من كبار موظفي الحكومة أما الشعب نفسه فلم يكن له بهذه الصحيفة صلة ما واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الجريدة الرسمية الثانية، في تاريخ الصحافة المصرية وهي:

الوقائع المصرية:

أدرك الوالي أن من الخير أن يكون الشعب المصري على صلة بأعمال الحكومة، ولا سبيل إلى ذلك بطبيعة حال إلا بنشر الجريدة الرسمية بين أكبر عدد ممكن من أفراد هذا الشعب المصري. وإذا ذاك استقر الرأي على توسيع نطاق الجريدة المعروفة (بجورنال الخديوي) وإصدارها باسم جديد هي (الوقائع المصرية) فصدرت هذه الجريدة في الثالث من ديسمبر عام ١٨٢٨ (١٥ عام ١٢٤٤). وكتب الوالي "إلى المديرين ورؤساء الدواوين بعمل خلاصة خصوصية، عن الوقائع التي تحصل بالجهات، وإرسالها إلى قلم الوقائع لطبعها وتوزيعها على الذوات الملكية والجهادية وتحصيل ما تقرر على ذلك من رسوم".

ومن ثم صدرت الأوامر العالية، بتوزيع الوقائع المصرية على أمراء البيت المالك وكبار الموظفين، وعدد كبير من العلماء ورجال الدين ثم فكر الوالي بعد ذلك في أنه لا مانع من توزيعها على طلبة العلم في

مصر وأوروبا بالمجان، لأن قراءة الوقائع بالنسبة إلى هؤلاء جزء من برنامج إعدادهم؛ ليكونوا موظفين صالحين في مستقبل الأيام.

ثم صدرت الأوامر بعد ذلك أن توزع (الوقائع) على جميع موظفي الحكومة بلا استثناء؛ بشرط أن يدفعوا الاشتراك ماداموا يتقاضون ألف قرش أو أكثر في الشهر.

وكان محمد علي يشعر في قرارة نفسه بأنه رئيس تحرير فعلي لهذه الصحيفة، والمسئول الأول عن كل ما ينشر فيها. وكان يوحي إلى كتابها ومحرريها بأن يخصصوا بها مكاناً ممتازاً لمدحه والثناء عليه لقاء سعيه في إنهاض البلاد من جميع النواحي. وكانت الوقائع لا تني في الإشارة بأعماله ووصفه بالعدل في الأحكام، وكانت مقدمة الصحيفة (أو مقالها الإفتتاحي) هي التي تتضمن كل ذلك. واعتاد الباشا أن يراجع مسودات الصحيفة قبل ذهابها إلى المطبعة، وكان يدقق في كل خبر من أخبارها، وباختصار قامت فكرة الوقائع على الدعاية الواسعة لمحمد علي وجهوده في سبيل الإصلاح والنهوض بالبلاد.

ولا شك أن الوقائع المصرية كانت تتألف من موضوعات أخرى فيما عدا الدعاية للوالي. ومن هذه الموضوعات– على سبيل المثال– البحوث العلمية التي احتاجت إليها مصر في نهضتها الحديثة كالبحوث التي تتصل بالمال، أو الزراعة، أو الصناعة، أو التعليم.

وفوق هذا وذاك وجدنا الوقائع تعني بحسن توجيه الحكام، وتصلهم بسياسة الوالي في كل مرفق من المرافق العامة. ولم تنس الوقائع بالإضافة إلى كل ما تقدم أن تحرص دائماً على إذاعة أنباء الجيش. وترقيات الضباط، والإشادة بانتصاراتهم. ونحن نعرف الدور الذي لعبه الجيش المصري يومئذ في الحياة المصرية، وفي تمكين مصر– كما يقول المؤرخون الأوروبيون– من أن تظهر بمظهر الأمة القوية النفوذ، الواسعة السلطان. ولا غرابة في ذلك. فهذا الجيش هو الذي قضى على المماليك، وفتح بلاد العرب، وهزم الوهابيين، وفتح السودان وكريت واليونان والشام، وطرد الإنجليز من مصر سنة ١٨١٧، ومكن الوالي من أن يكون سياسة خارجية خاصة بإزاء الباب المالي من جهة والدول الأوروبية من جهة أخرى.

أما أسرة التحرير في هذه الجريدة الرسمية القديمة فمن أولها رجل يقال له (سامي بك) كان لا يجيد غير اللغة التركية. ثم رجل يقال له (الخواجا نصر الله) كان رئيس المترجمين في الصحيفة. ثم رجال من الأزهر أحدهم الشيخ عبدالرحمن الصفتي كان عمله التحرير باللغة العربية.

وبقيت الوقائع على هذا النحو حتى قيض الله لها من جازوا بها دور الطفولة إلى أول مرحلة من مراحل الشباب وكان ذلك على يد شيخ الصحافة المصرية "غير منازع" رفاعة رافع الطهطاوي.

وذلك أنه في أواخر سنة ١٨٤١ اجتمع مدير ديوان المدارس ومدير الإيرادات وآخرون وفكروا في سياسة جديدة للوقائع، ووقع اختيارهم على رفاعة الطهطاوي لتنفيذ هذه السياسة. وكان من الخطوط العامة لها ما يلي:

أولاً– إضافة مادة جديدة إلى مواد الصحيفة– وهي مادة الأخبار الخارجية.

ثانياً– زيادة مادة أخرى كذلك وهي نشر القطع الأدبية التي يختارها المحرر من أمهات الكتب العربية الأدبية.

ثالثاً– العناية في باب الأخبار الداخلية بما يأتي:

أ– أخبار الرتب والترقيات.

ب– أخبار القضايا والأحكام.

ج– أخبار المساجد والمؤسسات الخيرية.

د– بيان بمساحة الأراضي التي تزرع حبوباً.

هـ– بيان (بالابعاديات) التي ينعم بها الوالي على بعض الموظفين المجتهدين بالحكومة.

و– أسعار الغلال واللحوم ونحو ذلك.

ز– بيان بعدد العمال الذين يعملون في الجسور والقناطر وما إليها.

ح– إشارة إلى الحوادث الغريبة أو غير المألوفة.

وأما جهة الإصدار فهي (قلم الوقائع). وأما مواعيد هذا الإصدار فلم يكن لها حظ ما من النظام، فحينا تصدر ثلاث مرات في الأسبوع، وحينا تصدر مرة واحدة في كل أسبوع، وأحياناً يمر أسبوع واثنان دون أن يصدر عدد جديد. وأكثر من هذا وذاك، أنه حدث أن انقطعت (الوقائع) عن الظهور خمسة أعوام كاملة.

وكانت لافتة الصحيفة في أول عهدها بالظهور عبارة عن "زهرية" كتب تحتها اسم الصحيفة هكذا "وقائع مصرية". ثم تخلصت الصحيفة من شكل الزهرية وجعلت مكانها شكل هرم كتب في داخله عنوان الصحيفة على النحو المتقدم، وأطلت من وراء الهرم نخلة، وظهر في الجانب الأيسر من هذا الهرم قرص الشمس.

وأما الصفحة الأولى فقد قسمت إلى عمودين كتب أحدهما باللغة التركية جهة اليمين والآخر بالعربية جهة الشمال. ثم حدث في بعض الأعداد أن كانت بعض المواد تكتب باللغة العربية وحدها، وكان ذلك مظهراً من مظاهر التعصب لهذه اللغة على كل حال، وكان في الوقت نفسه تمهيداً لتفرد اللغة العربية بتحرير الوقائع. وقد ساعد تفرد العربية بالتحرير في هذه الصحيفة على زيادة المادة التي تقدمها للقراء؛

فتوسعت الصحيفة إذ ذاك في الأخبار الداخلية والأخبار الخارجية وبعض المواد الأدبية التي تفيد القراء.

والمهم بعد هذا وذاك أن يقال: إن صحيفة الوقائع المصرية عاصرت الصحافة المصرية في الأطوار الأربعة التي سنتحدث عنها، وأن ما قدمناه من حديث صحيفة الوقائع إلى الآن إنما يصف هذه الصحيفة في أول طور من أطوار الصحافة. والآن فلنتنقل إلى الصحيفة التالية وهي:

الجريدة العسكرية:

كانت الوقائع المصرية تعني بأخبار الجيش وانتصاراته وحركاته، ولكن هذه العناية لم تقنع الجيش المصري في ذلك الوقت، ففكر في أن تكون له جريدة خاصة به أطلق عليها اسم (الجريدة العسكرية). وكانت الجريدة العسكرية تطبع بمطبعة "الجهادية" وبدأت في الصدور منذ عام ١٨٣٣ ميلادية، وتدلنا الوثائق على أنها كانت تختص بنشر الجرائم التي تقع في الألايات، ونشر الأحكام التي توقع على أصحاب هذه الجرائم بالذات، وإنها كانت تصدر خمس عشرة مرة في كل شهر، ومع هذا وذاك فإن هذه الجريدة لم تعش طويلاً لعدم الحاجة إليها.

ومضى عهد محمد علي، وتلاه عهد عباس الأول فسعيد. وفي عهدها أصاب الحياة المصرية شيء كثير من الركود، فأغلق ديوان

المدارس، وأغلقت المصانع والمعامل، وفسد الجيش نفسه بدخول الجند الأرناءوط، وبإيثار الوالي هذه الفئة الباغية التي حاول محمد علي من قبل أن يتخلص منها. ومن ثم كان من الطبيعي أن تتوقف الوقائع المصرية عن الصدور وأن يقف دولاب العمل جملة في المطبعة الأميرية.

وبقى الحال على ذلك حتى جاء إسماعيل فأصدر الأوامر الصريحة: "بأن تكون المكتبات التي تتداول من الآن فصاعداً بكافة الدواوين والمصالح الأميرية مكتوبة باللغة العربية". ويبدو أن الذي دفعه إليها هو كرهه الشديد للباب العالي والخلاف الذي نشب بينهما إذ ذاك.

وأما من حيث الجيش فقد أمر إسماعيل بإنشاء المدارس التي تعلم الفنون الحربية. وعنى كذلك بالبعثات الحربية التي أرسلها إلى فرنسا وغيرها من البلاد الأجنبية، وبعث في طلب الضباط الكبار من أمريكا؛ لتدريب الجيش المصري على النظم الحديثة، وعنى بأن يكون للجيش مطبعة، وصحف ومكتبة.

وكما احتاج جده محمد علي إلى كل من الوقائع المصرية والجريدة العسكرية، فكذلك شعر إسماعيل بالحاجة الماسة إلى شيء من ذلك. فظهر في عهده عدد لا بأس به من الصحف الرسمية. ومن أهم هذه

الصحف على سبيل المثال: (صحيفة روضة المدارس)، و(مجلة يعسوب الطب)، و(جريدة أركان حرب الجيش المصري).

وقد دأبت هذه الصحيفة الأخيرة على أن تقصر عنايتها على العلوم والفنون الحربية، كما كانت مجلة (يعسوب الطب)تقصر عنايتها على العلوم الطبية، وكانت كلتا الصحيفتين تنشران باللغة العربية لا التركية، وكان يشرف على تحرير الصحيفة العسكرية منهما أحد أساتذة الأزهر المعروفين، وهو الشيخ حسن الطويل، وكان مدرساً للغة العربية بمدرسة دار العلوم.

وللأهمية الثقافية لمجلة (روضة المدارس) الرسمية أردت أن أخصها بكلمة موجزة.

مجلة روضة المدارس:

أنشأ محمد علي ما سماه "بديوان المدارس". وألحق بهذا الديوان قلما للترجمة. وأهمل هذا القلم في عهد عباس وسعيد. فلما كان عهد إسماعيل اتجه إلى إحيائه من جديد وعهد به إلى رفاعة الطهطاوي، وهو الرجل الذي وكل إليه الباشا أموراً كثيرة تتصل بالصحافة. منها أمر الإشراف على تحرير مجلة جديدة تدعى (بروضة المدارس).

وصدر العدد الأول من هذه المجلة يوم السبت السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٠، وكانت تصدر مرتين في الشهر، ويطبع من كل

عدد ٣٥٠ نسخة زيدت فيما بعد إلى سبعمائة، "وكان يكتب فيها من ينتخبون لذلك من ذوي المعارف، وينشرون فيها ما يستحسن نشره بين الناس من الفوائد العلمية وتوسيع دائرة الأفكار".

وأما من الناحية الإخبارية فكانت روضة المدارس تعني دائماً بأخبار امتحانات الطلبة في مختلف المدارس، وما كان يقال في هذه الامتحانات من كلمات افتتاحية وأخرى ختامية، وكلها ثناء على الخديوي أو الباشا لتشجيعه لحركة انتشار المدارس. والحق لقد كانت (روضة المدارس) أول مجلة مصرية تعني بالعلوم والآداب في البلاد. ومن هذا كانت أشبه شيء بمجلة من المجلات التي تصدر عن بعض كليات الجامعة في الوقت الحاضر. فكما أن المجلة العلمية مقصورة على الأساتذة الذين ينشرون فيها أبحاثهم وآراءهم، فكذلك كانت روضة المدارس مجالاً لنشر هذه الأبحاث والآراء من جانب الأساتذة الذين ينتدبهم ديوان المدارس لمثل هذه المهمة، وبعبارة أخرى كانت هذه المجلة التي نتحدث عنها معرضاً للكتب التي يقوم بتأليفها الأساتذة والعلماء في مختلف العلوم والفنون. وكان كل واحد من هؤلاء الأساتذة أو العلماء ينشر كتابه فصلاً فصلاً بحيث إذا جمعت هذه الفصول في النهاية تألف منها الكتاب المطلوب في الطب أو الهندسة أو الجغرافيا أو التاريخ أو الكيمياء أو الفلك أو النبات أو الأدب والإنشاء أو الألغاز والأحاجي والنوادر ونحو ذلك.

وكانت مجلة روضة المدارس تفتح صدرها أحياناً لنجباء الطلبة كي يكتبوا فيها بعض موضوعات إنشائية على سبيل التشجيع. ومن الشبان الذين نشر لهم موضوعات في المجلة الشاعر المصري المعروف إسماعيل صبري. وباختصار كانت هذه المجلة أدبية علمية ثقافية ولا صلة لها مطلقاً بالأمور السياسية والاجتماعية.

الصحافة الشعبية أو شبة الرسمية

رأينا كيف بدأت الصحافة في مصر بداية غريبة كل الغرابة. فقد كانت تتألف من الصحف الفرنسية التي أصدرتها الحملة الفرنسية، ثم خرجت هذه الحملة وتلاها محمد علي فاستطاع هذا الأخير أن يبدأ الصحافة الرسمية المصرية بالمعنى الصحيح.

وهذا الذي يقال عن الصحافة الرسمية يمكن أن يقال مثله على وجه التقريب عن الصحافة الشعبية. فقد بدأت هي الأخرى بداية غريبة كل الغرابة. بدأت "بصحيفة السلطنة" التي ظهرت سنة ١٨٥٧ وكانت لسان حال السلطان العثماني تدافع عن مصالح السلطان السياسية، وهي المصالح التي قضت يومئذ بمحاربة سعيد؛ لأنه الوالي. الذي أصدر لائحة يقال لها "اللائحة السعيدية" أصبح بها الفلاح المصري مالكاً للأرض التي يزرعها، وألغى سعيد كثيراً من الضرائب التي أثقلت كاهل هذا الفلاح المصري، وقضى على نظام الاحتكار. ولم يقف سعيد عند هذا الحد من حدود الإصلاح حتى أخذ يحارب

الارستقراطية التركية في داخل الجيش المصري، ويعود إلى استخدام المصريين، ويسعى سعياً حثيثاً في أن يحتفظ لهذا الجيش بنقاوته من العناصر الأجنبية.

وعلى قدر ما قربت هذه الأعمال سعيداً من قلوب المصريين، باعدت بينه وبين السلطان العثماني في ذلك الحين. فلم يجد هذا السلطان بدأ من أن يسلك طريق الدعاية ضد هذا الوالي. ومن ثم فكر في نشر هذه الجريدة الشعبية التي أشرنا إليها. والعجيب أنه بينما فطن السلطان العثماني لخطورة هذا السلاح العظيم– وهو سلاح الصحافة والدعاية– إذا بسعيد صاحب هذه النهضة الاجتماعية التي توشك أن تكون انقلاباً في حياة المصريين، لم يفطن إلى شيء من ذلك، بل تراه– فوق ذلك– بغض النظر عن الصحف المصرية الرسمية التي بدأها جده محمد علي لهذه الغاية نفسها، وهي الدعاية فلم يشجع على استمرار الوقائع المصرية، ولم يفكر في إنشاء جريدة أخرى من الجرائد الرسمية. ولا خطر على باله أن يعدل عن الصحافة الرسمية إلى الصحافة الشعبية.

واستمر الحال على ذلك حتى أتى (إسماعيل) فكان حاكماً من طراز غير الطراز الذي عرف به (سعيد). كان يؤمن بالدعاية إيماناً جل عن الوصف، وكان يؤمن بالصحافة كما لم يؤمن بها حاكم في زمانه في الشرق، وكان شديد الولع كذلك باحتذاء الأوروبين في كل صغير وكبير من الأمور أراد أن يقلدهم في نظام الحكم، وفي مظاهر التحضر

والتمدن، وأراد أن يقلدهم في ميدان الثقافة والتعليم. وبدا للناس رجلاً يرى التقليد غاية في نفسه وليس وسيلة إلى الأغراض السياسية التي كان يهدف إليها. فإذا كان لأوروبا مجالس نيابية فلا بأس من أن يكون لمصر مجالس نيابية، ولو لم تكن حقيقية. وإذا كان لأوروبا صحافة شعبية إلى جانب الصحافة الرسمية فلا بأس من أن تكون لمصر صحف شعبية، ولو كانت في حقيقة الأمر صورة دقيقة من الصحف الرسمية.

وهكذا اقترن ظهور الصحافة الشعبية في مصر بظهور اسماعيل، وهو الرجل الذي أحاطت به ظروف سيئة بسبب الديون التي تورط فيها وأصبحت سبباً في تدخل الدول الأوروبية في شئون مصر الداخلية، ووقوعها تحت رقابة مالية مشتركة بين انجلترا وفرنسا.

في ذلك الجو المبلد بالغيوم فكر إسماعيل في أن ينشيء في مصر صحافة شعبية بالاسم رسمية بالفعل. وحاول أن يعتمد عليها في الدفاع عنه وعن سياسته ضد السلطان العثماني من جهة، وضد الدول الأجنبية من جهة ثانية. ونسى إسماعيل أن الصحافة الشعبية سلاح ذو حدين، أما أحدهما فيمكن تصويبه نحو أعدائه ممن ذكرنا، وأما الآخر فلا بد من تصويبه نحو اليد التي صنعته ولو كان ذلك بغير قصد منه.

أما تلك الصحف الشعبية التي ظهرت على يد إسماعيل فكانت على ضربين:

أولهما– الصحف الشعبية التي تولتها أقلام مصرية وعقول مصرية.

وثانيهما– الصحف الشعبية التي تولتها أقلام سورية وعقول سورية.

ومن الأمثلة على الضرب الأول:

صحف وادي النيل، ونزهة الأفكار، وروضة الأخبار، والوطن.

ومن أمثلة الضرب الثاني:

صحف الأهرام، ومصر، والتجارة، والمحروسة.

ولا بأس أن نقف وقفات قصيرة عند صحف الضرب الأول وأخرى عند صحف الضرب الثاني. وبذلك نعطي للقاريء صورة من صحافة مصر الشعبية في طورها الأول وهو طور النشأة.

صحيفة وادي النيل:

قلنا إن إسماعيل سلك في محاربته التدخل الأجنبي طريقين هما:

مجلس شورى النواب الذي تم تأسيسه عام ١٨٦٦. والصحافة الشعبية التي بدأت بصحيفة وادي النيل. وصدر العدد الأول في يولية سنة ١٨٦٧.

من أجل ذلك؛ أوحى إسماعيل إلى عبدالله أبو السعود موظفاً من موظفي الدولة؛ تخرج في مدرسة الألسن على يد أستاذه رفاعة رافع الطهطاوي، وعين فور تخرجه في قلم الترجمة الذي أعيد إنشاؤه في

عهد إسماعيل، ثم أصبح ناظراً لهذا القلم عقب وفاة أستاذه رفاعة. وكان في الوقت نفسه أستاذاً لمادة التاريخ بمدرسة دار العلوم، وأستاذاً لمادة الترجمة في مدرسة الألسن.

على أن هذه الصحيفة الشعبية الأولى كانت صورة دقيقة من الصحيفة الرسمية القديمة، ونعني بها الوقائع المصرية.

ووادي النيل جريدة شعبية علمية أدبية سياسية أسبوعية، تصدر مرتين في كل أسبوع، وكانت تطبع بمطبعة شعبية مقرها "حارة كوم الشيخ سلامة بالموسكي" بمدينة القاهرة.

وأما موادها الصحفية فلم تكد تخرج في مجموعها عما يلي:

١- الحوادث الداخلية- أو- أخبار الأسبوع.

٢- مجلس شورى النواب المصرية، وأخبار هذا المجلس منقولة بالنص عن صحيفة الوقائع الرسمية.

٣- إعلانات عن الصحف الجديدة التي تصدر بمصر والشام، أو غيرهما من أقطار العالم الإسلامي.

٤- وريقات وادي النيل وهي: عبارة عن صفحة الإعلان عن المطبوعات الجديدة، والمنشورات المفيدة. وفي هذه الصفحة كان يعلن رجال العلم والأدب عن كتبهم الحديثة.

٥- بعض فصول من الكتب الأدبية، والتاريخية القديمة. ولعل أول كتاب عنيت بنشره صحيفة وادي النيل هو كتاب ابن بطوطة.

٦- مادة الزراعة.

صحيفة نزهة الأفكار:

وهي صحيفة شعبية، اشترك في إصدارها أديبان كبيران هما: إبراهيم المويلحي وعثمان جلال. وذلك سنة ١٨٦٩، وكانا يظنان أنهما يستطيعان أن يتمتعا فيها بالحرية الصحفية الصحيحة، وأن يكونا في حل من نقد الحكومة، وأن يقوما في الوقت نفسه بالغرض من إنشائها كذلك؛ وهو الدفاع عن سياسة إسماعيل ضد عدويه الكبيرين، وهما الدولة العلية، والدول الأوروبية.

ولكن بالرغم مما لقيته هذه الصحيفة من عطف الخديوي وبره وتشجيعه، وبالرغم من الطابع الأدبي الذي امتازت به إذ ذاك؛ فإنها احتجبت عن الظهور بعد قليل لإسرافها في التجديد واستمساكها بالحرية التي لم تكن ملائمة للظروف المحيطة بمصر في ذلك الوقت.

صحيفة روضة الأخبار:

وصاحبها "محمد أفندي أنسي" وهو ابن الصحفي السابق الذكر عبدالله أبي السعود أفندي. ظهرت عام ١٨٧٥- وهو العام الذي شهد ميلاد صحيفة من أهم الصحف المصرية- وهي صحيفة الأهرام.

وامتازت الفترة التاريخية التي ظهرت فيها هاتان الصحيفتان بهدوء سياسي استراح في أثنائه المصريون بعض الشيء، وكانت الثورة العرابية تخفي أشراطها، ولا يكاد يوجد في مصر من يتنبأ بنشوبها.

وصحيفة روضة الأخبار "صحيفة مصرية معدة لنشر الإعلانات الخصوصية والعمومية، زراعية، ومالية، وتجارية" وكانت تتألف من أربع صفحات موزعة عليها المواد على النظام الآتي:

١- مادة للإعلانات الرسمية.

٢- ومادة للأخبار الداخلية.

٣- ومادة عنوانها (تذييل روضة الأخبار) تشتمل على قصة مترجمة من الفرنسية إلى العربية وتنشر على مرات متتالية.

٤- ومادة بعنوانها (توجيهات وتعيينات).

٥- ثم مادة الإعلانات على نحو ما تفعل صحيفة وادي النيل تماماً.

الطور الثاني"طور الشباب"

(من سنة ١٨٧٧– إلى سنة ١٨٨٢)

اقترن الطور الثاني من أطوار الصحافة المصرية– وهو طور الشباب– بظهور طائفة من الصحف أولها الأهرام والوطن ولنتحدث أولاً عن هذه الأخيرة:

جريدة الوطن:

وهي جريدة سياسية أسبوعية صدرت عام ١٨٧٧ لمحررها "ميخائيل أفندي عبد السيد"

ولهذه الصحيفة المصرية كما لزميلاتها من الصحف السورية التي ظهرت بالديار المصرية، ظرف يخالف الظرف الذي نشأت فيه الصحف الشعبية التي تحدثنا عنها من قبل.

وخلاصة هذا الظرف الأخير، أن الحرب نشبت بين تركيا وروسيا. وكانت الصحف المصرية قبل نشوب هذه الحرب ممنوعة من الخوض في الأمور السياسية، ومحظوراً عليها أن تنقل شيئاً من هذه الأخبار عن أية صحيفة أجنبية، فلما قامت هذه الحرب الروسية التركية انطلقت صحف الشعب تخوض في الحديث عنها وتعني بتفاصيلها، وتنقسم في ذلك فريقين: فريق يظهر الإعجاب بأبطال الترك– كما فعلت جريدة مصر لصاحبها أديب إسحق، وفريق يظهر الإعجاب بأبطال الروس– كما فعلت جريدة الوطن. لصاحبها ميخائيل عبد السيد.

وكان على مصر أن تقدم العون في هذه الحرب لتركيا، ولكنها لم تكن في حالة مالية طيبة تساعدها على تقديم المعونة. من أجل ذلك وقفت الحكومة المصرية موقف التغاضي عما تثيره الصحافة المصرية من أحاديث حول هذه الحرب التي نشبت بين الترك والروس. وتلك هي المرة الأولى في تاريخ مصر الحديث التي سمح فيها الوالي للصحف المصرية بالخوض في الشئون السياسية. ومن ثم كان فضل الحرب الروسية التركية على الصحافة المصرية عظيماً وأثرها كبيراً في تحويلها إلى صحيفة جديرة باسمها متمتعة بحريتها على هذا النحو.

ومن الأمور السياسية التي خاضت فيها الصحف الوطنية المصرية أمر تعيين أول وزارة مصرية برياسة نوبار– وهي الوزارة التي عرفت في تاريخنا الحديث باسم الوزارة المختلطة؛ لأنها كانت تتألف من وزراء منهم اثنان أجنبيان أحدهما: فرنسي والآخر: إنجليزي. وقد رأينا صحيفة الوطن تستقبل هذه الوزارة استقبالاً حسناً، وتتفاءل خيراً بقدومها وتصفها بأنها الوزارة المسئولة التي ستصلح ما أفسدته العهود السابقة وترفع الضرائب عن كاهل الفلاح!

والعجب في ذلك من أن التيار قد جرف الصحافة الوطنية إذ ذاك واضطرها إلى أن تكيل الثناء للوزيرين الأجنبيين!! ومع هذا فقد أثبتت الأيام أن وزارة نوبار هذه لم تفلح في إصلاح شئون البلاد ولم تحقق أملاً من آمال ميخائل عبد السيد!!..

غير أن لهذه الجريدة الشعبية الصميمة "وهي جريدة الوطن" مواقف محمودة في مجال الشورى؛ لأنها الصحيفة التي وقفت تدافع عن النواب المصريين دفاعاً مجيداً، وقد اضطرت من أجل ذلك إلى أن تغير من خطتها الأولى وتعود إلى مهاجمة الوزيرين الأجنبيين، فاستبدلت بالثناء عليهما نقداً وذماً وتجريحاً لهما. وبلغت في ذلك ما لم تبلغه صحيفة أخرى من الصحف الشعبية باستثناء جرائد أديب إسحق.

وندع الصحف المصرية جانباً، وننظر في بعض الصحف التي قام على نشرها السوريون في مصر في ذلك الحين ومنها:

جريدة الأهرام:

فر من السوريين من فر إلى مصر ليتمتعوا فيها بحرية نسبية، وينجوا بأنفسهم من ظلم الولاة العثمانيين الذين كانوا يشهرون عليهم سلاح القانون المخيف– قانون المطبوعات.

وكان من أولئك السوريين شاب يُدعى (سليم تقلا) شوهد في نظارة الخارجية وهو يطلب الإذن له بإنشاء مطبعة تسمى (مطبعة الأهرام) بمدينة الإسكندرية بجهة يقال لها (المنشية). كما طلب يومئذ أن يؤذن له بطبع جريدة (الأهرام). وقال إنه سيقصرها على البرقيات التجارية والعلمية، وينشر فيها نتفا من الكتب الأدبية العربية، وبعض قصائد من الشعر.

واشترطت نظارة الخارجية على صاحب الأهرام ألا يخوض في السياسة بحال من الأحوال، وبقى الحال على ذلك حتى قامت الحرب الروسية التركية– وهي الحرب التي قلنا إنها فتحت الباب على مصراعيه أمام الصحافة المصرية، لكي تخوض في الأمور السياسية بقدر كبير من الحرية. غير أن الأهرام بالغت في استخدام هذا القدر من الحرية حتى تعرضت للإنذار من جانب الحكومة المصرية فقد حذرتها هذه الحكومة مراراً من كتابة المواد المهيجة للخواطر العامة. ثم تظهر في الأفق المصري غيوم تكفر لها سماء مصر في عهد إسماعيل، وتخوض الأهرام هذه المعركة، وتأخذ في معارضة الخديوي سافرة [1]، بل تقف في جانب فرنسا في أثنائها بطريقة واضحة، فتضطر الحكومة إلى إغلاق الأهرام، ويضطر صاحبها إلى إصدار جريدة أخرى هي (صدى الأهرام) ثم تأمر الحكومة بإغلاق هذه الجريدة الأخيرة، وأخيراً تسمح بالإفراج عن الأولى. وذلك بفضل المساعي التي بذلتها القنصلية الفرنسية لدى الحكومة المصرية. وهكذا تبدو حياة (الأهرام) في طورها الأول حياة كفاح من أجل الوجود ومن أجل الحرية وتظهر في أثناء ذلك جرائد أخرى هي جرائد مصر والتجارة والمحروسة والعصر الجديد. وهي جرائد اشترك في إصدارها كل من سليم النقاش، وأديب اسحق. إبتداء من سنة ١٨٧٧ وهي السنة التي صدرت فيها

---

[1] من ذلك أن الأهرام وصفت الخديوي بأقذع الصفات وقالت عنه إنه صرف مائة ألف جنية من دم الفلاح وأنه يمثل هذه التصرفات السيئة يفضي بالبلاد إلى الهاوية.

مصر سنة ١٨٧٨ وهي السنة التي صدرت فيها كل من العصر الجديد والمحروسة.

وشاركت الصحف كلها في المعركة السياسية التي بدأت بالحرب الروسية التركية؛ وهي المعركة التي جعلت من الصحافة المصرية صحافة رأي– أو على الأقل– في سبيلها لأن تكون صحافة رأي وقد كان لهذه الصحف السورية على اختلافها– ونخص بالذكر منها صحيفة التجارة– مواقف عظيمة تذكر لها بالثناء ومنها الموقف الذي وقفته من الأجانب الأوربيين المقيمين في مصر. فقد أوحى هؤلاء الأجانب إلى بعض الصحف الأوربية التي تصدر في مصر بأن تشوه من سمعة النواب وبعض الشخصيات المرموقة في البلاد ونتهمهم بالرشوة فتصدت التجارة– ومعها زميلاتها من الصحف السورية– للرد على تلك الصحف الأجنبية حتى أسكتتها.

واختفى الكثير من هذه الصحف السورية، وبقيت صحيفة واحدة من هذه الصحف فقط هي (الأهرام) وذلك بالرغم من أنها كانت ضالعة مع القنصل الفرنسي. فما السبب في ذلك ياترى؟ أكبر الظن أن هذه الجريدة السورية القديمة؛ وهي الأهرام كانت لها من المقومات الذاتية ما ضمن لها البقاء، ومن عناصر القوة ما كفل لها الازدهار والنماء. وربما كان من هذه المقومات– على سبيل المثال– عنايتها بالبرقيات الخارجية، واستكتابها لكبار الشخصيات في البيئة المصرية، ومنها شخصية محمد عبده. ثم منها كذلك– أي من هذه المقومات–

"الحس الصحفي" الدقيق الذي تميز به صاحبا الأهرام. وكانا من أجله يشاركان العمال في المطبعة، ويقومان على تنسيق الصحيفة بنفسهما، ولا يكلان هذا الأمر لغيرهما من المحررين والعمال. وإن ننس لا ننسى كذلك الدهاء والذكاء اللذين امتاز بهما صاحبا الأهرام، وبهما كانا يخرجان من المآزق العديدة التي تعرضت بسببها الأهرام كثيراً للتعطيل والإلغاء.

ثم تمتاز صحيفة الأهرام إلى يومنا هذا بالمرونة السياسية. حسبها هذه الصفة الأخيرة لكي تبقى على الدهر هذه المدة الطويلة، ولكي تخلد في مصر خلود "الأهرام" التي بناها الفراعنة القدماء واختارتها الصحيفة لتكون عنواناً لها ولمطبعتها إلى اليوم!

رأينا كيف كانت الصحف الشعبية في أول أمرها صورة دقيقة من الصحف الرسمية. فلاحظ لها من حرية القول أو النقد، ولا أمل لها في أن تكون صحافة رأي. وبقيت الصحف الشعبية على هذا النحو حتى نشبت الحرب الروسية التركية. فبدأت تشب قليلاً عن الطوق، وتخوض فيما كان محظوراًعليها أن تخوض فيه من الكلام في الموضوعات السياسية.

نعم– كان من صالح الحكومة المصرية في أثناء تلك الحرب أن ترخي الحبل للصحافة لتتمرن على القفز أو العدو وبالفعل أرخت

الحكومة للصحافة من الحبل ولكنها بقيت تمسك بطرفه ولا تسرف في بسطه كل البسط.

ثم ما كادت الصحافة الشعبية تجتاز تلك المرحلة، حتى وجدت نفسها تظفر في كل يوم بقدر لا بأس به من حرية القول؛ وهو قدر وصل في كثير من الأحيان إلى حد التطاول على ولي الأمر!! ولنا أن نمد القاريء ببعض الأمثلة من هذه الحرية التي تمتعت بها الصحف الشعبية في بداية هذاالطور الثاني الذي نتحدث عنه: فهذه صحيفة (مرآة الشرق)[1] لمحررها (إبراهيم اللقاني) تصف فساد الحال في مصر، وتبحث عن أسباب هذا الفساد فتصرح بأنها ترجع إلى أمراء البيت المالك وجهلهم بواجباتهم ونحو وطنهم، وسوء تدبيرهم، واختلال أحوالهم "لا يعرفون شرعاً، ولا يرضون قانوناً، ولا يسمعون رأياً، ولا يقبلون نصحاً، بل تعدوا الحدود وانتهكوا المحارم، وثلموا الأعراض، وحاربوا العدل، فطغوا وبغوا، ونهبوا وسلبوا، وفتكوا وهتكوا.... شادوا القصور، وغرسوا البساتين، واقتنوا الحور والولدان... وتأنقوا في المآكل، وتفننوا في المشارب، وزينوا الملابس وسحبوا

---

[1] جريدة سياسية علمية أدبية تصدر بالقاهرة يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع. وصاحبها سليم عنجوري الدمشقي. ومحررها إبراهيم اللقاني.

مطارف العجب والخيلاء. وأفراد الرعية على مرأى منهم حفاة عراة يتضورون جوعاً، ويتلظون ظمأ، ويموتون من البرد[٢].

ثم هذه جريدة (مصر) وهذه زميلتها (التجارة) – وكان يحررهما سليم النقاش وأديب إسحاق، أما أولهما فتدافع دفاعاً مجيداً عن كرامة المصريين الذين لا يعاملون معاملة الأجانب المقيمين معهم في بلادهم. وأما الأخرى فتهاجم قانون المطبوعات وتعجب كيف أن هناك إدارتين، واحدة منهما للصحف الأجنبية والأخرى للصحف الوطنية، ولكن البون شاسع بينهما في معاملة الصحف.

في ذلك الوقت كان السيد جمال الدين الأفغاني في مصر يبذر بذور الثورة الفكرية، ويغرس في نفوس المصريين حب الحرية والنخوة الشرقية فتأثر الصحفييون بتعاليم السيد جمال الدين الأفغاني كل التأثير، وظهر ذلك في الصحف التي صدر الكثير منها بوحي هذا الرجل في ذلك الحين.

أنظر إلى أديب إسحاق في جريدة مصر وهو يقول: في الامتيازات الأجنبية: "لا ريب في أن امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعناً... وقد حان لهذه البلاد أن تنتعش من عثرتها.وتفلت من ربقتها ..." الخ هذه العبارات التي

---

[٢]إبراهيم عبده: تطور الصحافة المصرية ص٩٨ – نقلاً عن صحيفة مرآة الشرق بتاريخ ٢٨من أبريل، تاريخ أول مايو سنة ١٨٧٩.

استفز بها الشعب المصري ضد هذه الامتيازات الأجنبية، وما أشبه هذه العبارات بما كان يردده السيد جمال الدين الأفغاني في هذا المعنى.

وفي صحيفة (مصر القاهرة) كتب أديب إسحاق أيضاً يقول في وصف خطتهم التي سينتهجها نحو الحكومة المصرية: "... سأكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح، متجافياً عن التعريض والتلميح، وأجلو آراء ذوي النقد، وأبين نقائض أهل الحل والعقد، وأوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحاً (أولي الأمر) ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهم (أمناء الأمة)، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلاً (ولاة النظام)".

"وقصدي من ذلك أن أثير بقية الحمية الشرقية، وأهيج فضالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين، ليعلم قومي أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ومالاً منهوباً فيطلبوه، وليستصغروا الأنفس والنفائس في جانب حقوقهم، فمن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن عاش بعد أولئك فهو سعيد".

هكذا بلغ أديب إسحاق في جرأته على الحكومة في عهد رياض إلى هذا الحد، لأنه كان قد نفى من مصر إلى باريس، وهناك شعر هذا الأديب بمطلق الحرية فيما يريد.

وهنا نرجع بالتاريخ خطوة واحدة إلى الوراء فنسمع بعزل إسماعيل وقد كان لهذا النبأ رنة فرح عظيم في جميع الصحف الشعبية على اختلافها، وأخذت هذه الصحف تحمد الله على عزله، وتبشر البلاد بعهد جديد يكون أساسه الشورى ونصرة الحق، وإباحة الحرية، وتعليم الشعب، والإكثار من المرافق الخيرية، وتمهد كل هذه الظروف لنشوب الثورة العرابية فتبلغ هذه الثورة بالصحافة الشعبية آخر الشوط وحسبنا هنا أن نسوق مثلاً واحداً على ما نقوله.

كتب النديم في أثناء الثورة العرابية مقالاً نشره في السادس من شهر مايو سنة ١٨٨٢ بجريدة (الطائف) وعنوان المقال "سلب الأملاك من الملاك" هاجم فيه إسماعيل واتهمه بأنه هو الذي حرم الناس أملاكهم، واستأثر بأرزاقهم. ثم مرضالنديم في أثناء ذلك، فأتم المقال، وأرسل يعتذر عن تحرير باقي الجريدة إلا ما كان خاصاً بتاريخ إسماعيل باشا "فإني أكلف بكتابته لأن نشره علاج لما بي"!

وندع الحديث عن الحرية التي تمتعت بها الصحف الشعبية، وننظر في المهم من تلك الصحف التي ظهر بعضها في طور النشأة وأدرك الطور الذي تلاه، وقد شهد هذا الطور طائفة من كبار الصحافيين الذين تفخر بهم مصر ومن هؤلاء على سبيل المثال:

١- الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده- وقد اشترك في تحرير (الوقائع المصرية). كما اشترك في تحرير (الأهرام). وتعاون مع

أستاذه جمال الدين الأفغاني في باريس على إصدار مجلة (العروة الوثقى).

٢- ومنهم الشاب السوري المتوقد الذكاء (أديب اسحق) وقد شارك في تحرير صحيفة مصر، وصحيفة مصر الفتاة، وصحيفة مصر القاهرة التي أصدرها في باريس كما قلنا.

٣- ثم منهم السيد عبدالله النديم، وقد أصدر صحيفة (التنكيت والتبكيت) وصحيفة (الطائف) وصحيفة (الأستاذ) .

٤- ثم منهم صاحب الأهرام.

٥- ومنهم كذلك الكاتب الإسرائيلي الذائع الصيت (يعقوب بن صنوع) صاحب الصحيفة الهزلية المعروفة "بأبي نظارة".

وشاءت الظروف أن يكون هؤلاء جميعاً بدون استثناء تلامذة أوفياء للسيد جمال الدين الأفغاني: نفخ فيهم الرجل من روحه؛ وأوحى إليهم بإصدار كثير من الصحف التي طلعوا بها على الناس.

ثم جاءت الثورة العرابية نفسها ثمرة لهذه الحركة، فقامت على النحو الذي يعرفه التاريخ، وكانت عاملاً آخر من عوامل النهضة الصحفية. ولو نجحت هذه الثورة لتغير وجه الصحافة المصرية والحياة المصرية تغيراً لا تعلم مداه.

الوقائع المصرية والأستاذ الإمام:

بدأ الشيخ محمد عبده يكتب في الوقائع المصرية من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٠، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت الوقائع للناس بمظهر جديد وأصبحت منبراً من منابر الرأي العام يلقي من فوقه ذو العلم والخبرة كثيراً من آرائهم في ميدان الإصلاح الإجتماعي والإصلاح السياسي. وكانت طبيعة هذا الشيخ أدنى إلى الإعتدال كما كانت عقليته تطورية أكثر منها ثورية. ومن هذه الناحية الأخيرة فقط يأتي الفرق بينهم وبين أستاذه جمال الدين الأفغاني.

يدلنا على ذلك مقال للشيخ محمد عبده نشره في الوقائع بعنوان (خطأ العقلاء) قال فيه:

"إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة إذا أكثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالها الحاضرة فتولد في عقولهم أفكار جميلة ... ولكونهم إكتسبوا هذه الأفكار من الكتب والأخبار، ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذي وصلوا إليه أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم، قريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم فيطلبون من الناس أن يكونوا على مشاربهم، ويرغبون في أن يكون نظام الأمة وناموسها العام طبق أفكارهم وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين. .

"تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات .. لكنهم أخطأوا خطأ عظيماً لأنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التي يريدون إرشادها ولم يختبروا قابلية الأذهان واستعدادات الطبائع للانقياد إلى نصائحهم إلخ".

وبقيت مقالات الأستاذ الإمام هادئة كهدوء الشمس، محصورة في المجال الإجتماعي البحت، حتى قامت الثورة العرابية فتحولت مقالاته إلى سياسية، وظل في هذا الاتجاه الجديد إلى أن نفي من البلاد المصرية عقب الثورة العرابية، ورحل إلى باريس حيث التقى بأستاذه الأفغاني من جديد. وهناك اتفق الرجلان على إصدار العروة الوثقى.

الأستاذ الإمام والعروة الوثقى:

وكان لهذه الصحيفة الخطيرة أهداف تنحصر فيما يلي:-

أولاً- إفهام الشرقيين جميع الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم، وبيان الطرق التي يسلكونها لإدراك ما فات.

ثانياً- إفهام الشرقيين كذلك أن الأمل في النجاح قريب ولا داعي في بلوغ ذلك إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها يوجب الفتور ويحط من العزائم.

ثالثاً– دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التي كان عليها الآباء والأسلاف. فلا يصح آخر هذا الأمر (يريد أمر الدين) إلا بما صلح به أوله.

والمثل الأعلى للمسلمين في نظر العروة الوثقى هو ما كان عليه الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين.

رابعاً– إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون في مضمار الحياة ما داموا متمسكين بدينهم لأن دينهم في نظر من لا يفهمونه من الأوروبيين يدعو إلى التواكل.

خامساً– تقوية الروابط بين الأمم الشرقية وتأييد المصالح المشتركة بينهم.

سادساً– وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة. ووصلهم كذلك بسياسة الدول الأجنبية تجاه الشرق.

صرح الرجلان بأهداف الجريدة بهذه الطريقة الصريحة الجريئة، فسرت بين الشرقيين سريان البرق. وتنافسوا جميعاً في اقتنائها وتسابقوا كذلك في اعتناق أفكارها وآرائها. ونجحت الجريدة بالفعل في شفاء المسلمين من مرض (الوهم) الذي تسلط على نفوسهم وخيل إليهم أنهم أصبحوا لا يستحقون نعمة العلم ولا نعمة الحرية.

وفي مجال هذه الأفكار والآراء دارت مقالات الشيخ محمد عبده التي نشرها في العروة الوثقى، وحملت هذه المقالات طابع الدرس والشرح لجميع العلل التي أصابت العالم الإسلامي في ذلك الوقت وكان من أخطر هذه العلل في نظر الشيخ سوء فهمهم (لعقيدة القضاء والقدر) – أو على الأصح سوء فهم الأوروبيين لهذه العقيدة التي يعتنقها جمهور المسلمين، واعتقاد أولئك الأوروبيين أنها سبب في تأخر المسلمين ووقوعهم فريسة للاستعمار الأوروبي الذي زعم أنه يقودهم إلى العلم والحضارة.

قال الشيخ:

"الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شجاعة الجبر تتبعه صفة الجرأة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترتجف لها قلوب الأسود وتنشق منها مرائر النمور. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلي الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها. بل يحملها على بذل الأرواح والتخلي عن ندرة الحياة، كل هذا في سبيل الحق الذي دعاها للإعتقاد بهذه العقيدة".

أديب إسحاق وجريدة مصر:

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة لمحررها أديب إسحاق في الثلاثين من شهر يوليه سنة ١٨٧٧، وكان أديب يصف فيها الحريات

التي تتمتع بها الدول الأجنبية، ويحاول أن يشرح للشعب المصري حقوق الحاكم وحقوق الرعية، كما تصدى في هذه الجريدة لشرح المعاني الجديدة على أذهان الشعب المصري، وهي معاني الوطن، والوطنية، وتعرض لوصف المذاهب السياسية والإجتماعية في أكثر البلاد الأوروبية، ومن أهمها الدولتان الألمانية والروسية. وهذه كلها أشياء كانت غريبة على الذهن المصري كل الغرابة. فجاء شاب كأديب إسحاق نهل من الثقافتين الشرقية والغربية، وتولى بنفسه تثقيف الشعب من هذه الناحية، وكتب مقالاته كلها بأسلوب يذكر بأساليب الأدباء الكبار في تاريخ النثر العربي من أمثال إبن العميد وبديع الزمان والقاضي الفاضل وغيرهم.

واختلف أديب إسحاق مع ناظر النظار (رياض) فاضطر هذا الأخير إلى أن يأمر بنفيه إلى باريس، فانتقل الرجل إليها بجريدته وهو في حالة نفسية مؤلمة، وهناك في باريس أطلق على جريدته اسم:

جريدة مصر القاهرة:

وجاء في أول عدد من أعداد هذه الصحيفة الأخيرة قوله:

"الحمد لله وحده. هذه صحيفة مصر: طواها الاستبداد فماتت شهيدة. ثم أحيتها الحرية فعاشت سعيدة. ترسل إلى المريدين والأولياء، والنبهاء القراء منهية إليهم أن قد اتاني الله نعمة الحرية، ومن أوتي هذه

النعمة فقد أوتي خيراً كثيراً، ولسوف ترون مني رواية الصادق، في رأي الآمل، في عزم الآيس.

"حاول رياض باشا المتصدر في بلاد مصر إطفاء نوري، وأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الظالمون. أماتني بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها للفتنة، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله. فزعم أني ناصبته الشر نفرة منه وتشيعاً لسواه، وما أنا في شيء من ذلك. فإني أعز نفساً، وأنبل قصداً من أن تستميلني الأشخاص، وإنما أميل مع المقاصد فما كان منها ملائماً للشرب الذي أحسه حقاً:

فذلك من دون المشارب مشربي

وذلك من بين المذاهب مذهبي

وأما ما كان منها مغايراً للمبدأ الذي أراه عدلاً:

رميت به من حالق رمى حانق

متى يرم لم يخطيء وإن يبغ يدأب

ومات أديب إسحق في التاسعة والعشرين من عمره.

عبدالله النديم:

والآن، أنتقل إلى صحفي النصف الثاني من القرن الماضي غير منازع. ونعني به السيد عبدالله النديم، وهو أعجوبة عصره في كل شيء: أعجوبة عصره في نشأته، وفي تعدد جوانبه، وفي شعبيته، وفي مواهبه.

والحق أن النديم من حيث مواهبه الكثيرة التي منها الكتابة والشعر والخطابة كان كنزاً عظيماً من كنوز مصر، غير أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح شتى. ولو أن النديم تفرغ لناحية واحدة فقط، كناحية الصحافة، لطورها، وقفز بها إلى الغاية المرجوة منها في أقل مدة ممكنة. غير أن العارفين بسيرة هذا الرجل يرون أنه شتت مواهبه بين نواح ثلاث، هي ناحية القصة، وناحية القصيدة، وناحية المقال. وذلك كله عدا الخطابة والزجل، وعدا الكتب الأدبية القريبة الشبه بالمقامات.

ومهما يكن من أمر فقد كان أهم الصحف التي أصدرها النديم:

أولاً- صحيفة التبكيت والتنكيت:

صدر العدد الأول منها في السادس من شهر يونيه سنة ١٨٨١ وكان فيها معنياً بالإصلاح الاجتماعي والإصلاح الخلقي، وكتبها باللغتين العربية والعامية. قصد بالعربية طبقة الخاصة، كما قصد بالعامية طبقة العامة:

وشاء أن يكون اسم الصحيفة دالاً عليها. فقد كانت طريقة النديم أنه يقسم مقاله في هذه الصحيفة إلى قسمين: أولها– (تبكيت) بمعنى توبيخ للمجتمع المصري على عيب من عيوبه.

وثانيهما– (تنكيت) على هذا المجتمع في هذا العيب من عيوبه.

ولاشك أن هذه طريقة من طرق الإصلاح الاجتماعي في غاية البراعة. فوق أنها تحتاج من محررها إلى أقصى ما يمكن من الذكاء والمهارة.

ومن كتابات النديم العامية في هذه الصحيفة ما جاء بعنوان:

"كم في الزوايا من خبايا".

وعنوان:"هف طلع النهار".

وعنوان:"تخريفة خد من عبدالله واتكل على الله".

وعنوان:"عربي تفرنج"الخ...

فهذا قسم من أقسام الصحيفة.

وأما القسم الآخر من هذه الصحيفة فكان النديم يكتبه باللغة العربية السليمة ويتجه فيه إلى الطبقة المثقفة المستنيرة. ويسلك في سبيل ذلك بعض الطرق الأدبية الممتازة مثل طريقة الرمز في الكتابة. فعل ذلك في مقال له بعنوان:

(مجلس طبي على مصاب بالافرنجي)

دخل به في صميم المشكلة المصرية التي كان يفكر فيها المصريون إذ ذاك، وهي مسألة الديون التي تورط فيها إسماعيل، وبسببها أصيبت البلاد بالتدخل الأجنبي.

عبر (النديم) بلفظ (مصاب الافرنجي) الذي هو داء الزهري عن الخراب الذي أصاب البلاد نتيجة لإسراف إسماعيل هذا، ووقوعه في براثن الدين، ثم وقوع البلاد فريسة التدخل الأجنبي وفرض الرقابة الثنائية.

وعبر (النديم) بلفظ (مجلس طبي) عن العقلاء في الأمة.

وهم وحدهم القادرون على إنقاذ البلاد من هذا الخراب الذي حل بها.

وكُنى النديم بلفظ (المصاب) في ذاته عن مصر، فصورها بصورة فتى كان صحيح الجسم قوي الأعصاب جميل الصورة لطيف المعشر. ثم ابتلى هذا الفتى بصاحب له (إسماعيل) أحسن الظن به أول الأمر فأسلم له نفسه. ثم ما لبث أن وقف على نواياه، وعلم أن صاحبه هذا أوفى به إلى الهلاك وباعه في الأسواق واشتراه منه سماسرة السوء من الأوروبيين ودعاة الحضارة من الغربيين فانزلقوا به في مواطن الشبهات ووصلوه بالكأس والطاس، وانغمسوا به في دور البغاء. ففسدت صحة الفتى، ولزم الفراش، ويئس من الشفاء، وألقى به في قرية قذرة لا أنيس

له فيها ولا معين. ومر به قومه على حين غرة فعرفوا داءه وفكروا في دوائه، ووقفوا به سريان الداء في مفاصله.

ثم قامت الثورة العرابية فانتقل النديم بصحيفته تلك إلى الميدان واختار لها الزعيم أحمد عرابي اسماً آخر هو:

صحيفة الطائف:

وفيها كتب النديم مقالات كثيرة وعنيفة في نقد إسماعيل وتوفيق، وكتب مقالات أخرى في وصف حالة الفلاحين وما انتهوا إليه من بؤس شديد، ودعا الحكومة إلى وجوب العناية بهم لأنهم جزء من صميم الأمة المصرية.

واستأثر الإصلاح النيابي في مصر بجانب هام من جهود النديم في صحيفة الطائف؛ وخاصة أن الثورة العرابية في أساسها ثورة دستورية قبل كل شيء.

غير أن الخطأ الذي ارتكبه النديم في صحيفة الطائف هو الطريقة التي اتبعها في تحرير هذه الصحيفة منذ انتقل بها إلى ميدان القتال، وهناك أخذ يمد القراء بأخبار المواقع التي بين العرابيين والإنجليز، وفيها طفق يموه على الأذهان بوصف شجاعة المصريين ومعدات المصريين، وذلك بالضبط على النحو الذي كان يفعله في الخطب الكثيرة التي ألقاها لغرض الدعاية، وكان يفخر فيها بذكر مدافع

الإسكندرية التي إذا ضربت وصلت إلى جزيرة قبرص من هذا الجانب، ومدافع الاستانة إذا أطلقت بلغ مرماها هذه الجزيرة من الجانب الآخر، فكيفما جاءت الأساطيل الإنجليزية فهي تحت رحمة مدافعنا!!

وانتهت الثورة العرابية بالفشل واعتقل من زعمائها من اعتقل، فهرب النديم واختفى عن أنظار الحكومة والجمهور؛ ومكث مختفياً زهاء عشر سنين.. ثم أعلن الخديوي عباس حلمي الثاني العفو عن النديم سنة ١٨٩٢ فعاد إلى الظهور. ويومئذ رجع إلى ميدان الصحافة حيث أصدر صحيفته الثالثة وهي:

جريدة الأستاذ:

والحق أن هذه الجريدة الأخيرة كادت تكون صورة من الجريدة الأولى باسم (التبكيت والتنكيت) لولا ما امتازت به الأستاذ من تنوع الأهداف التي تتلخص فيما يلي:-

أولاً- الإصلاح الاجتماعي.

ثانياً- إصلاح التربية والتعليم.

ثالثاً- الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب.

رابعاً- مهاجمة الاحتلال البريطاني دفاعاً عن الخديوي عباس حلمي الثاني.

خامساً- الحملة على المبشرين المسيحيين.

وذلك كله فضلاً عن عناية النديم باللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية، والدعوة إلى احترام هذه المادة في جميع مناهج الدراسة، والدعوة أيضاً إلى معاملة مدرسيها بسخاء لا يقل عما يتمتع به مدرسوا المواد الأخرى في المدارس الحكومية. وبهذا الجزء الأخير من جهود النديم تأثر الزعيم الشاب مصطفى كامل، فمضى هو الآخر يدافع عن أساتذة اللغة العربية بعد إذ مكر الاحتلال البريطاني بهم، وجعل الفروق واسعة بينهم وبين مدرسي المواد الأخرى وخاصة مادة اللغة الإنجليزية.

وإلى جانب الصحف المتقدمة كانت هناك صحف أخرى تؤدي واجبها في الميدان. ومن أشهر هذه الصحف:

صحيفة الأهرام:

وقد مضت هذه الصحيفة في خطتها المعروفة– وهي خطة الاعتدال والتوسط دائماً بين المصريين والأجانب. فحينا تكتب في مناصرة الوطنيين. وحينا تنقل أراء الإنجليز والفرنسيين فيما يتصل بالمشكلات المصرية المعروفة ورأيهم كذلك في الأحداث المصرية الجارية، كعزل رياض من الوزارة ومجيء شريف مكانه.

غير أن الخطأ الذي ارتكبه الأهرام في هذا الطور من أطوارها أنها بالغت في ذكر مثالب الباب العالي، وبالغت في الوقت نفسه في ذكر محاسن الأوروبيين وخاصة الفرنسيين. وزادت على هذا وذاك أنها

وقفت موقفاً يوشك أن يكون معادياً للثورة العرابية– فاخذت تنذر العرابيين بالويل والثبور وعواقب الأمور.

ولا نستطيع أن نترك صحافة هذا الطور دون أن نشير إلى صحافة جديدة من حيث النوع– وهي الصحافة الهزلية. وإمام هذه الصحافة إذ ذاك هو "يعقوب بن صنوع" وكان من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني. وقد لمس بيده مظالم إسماعيل فعاش حياته يسخر من أعماله حتى اضطر إسماعيل إلى نفيه من مصر إلى فرنسا حيث عاش معظم حياته.

وقد سلك (يعقوب بن صنوع) في سبيل السخرية إسماعيل وأوضاع الحياة المصرية في زمانه طريقين هما: طريق الصحف، وطريق المسرح. ونجح نجاحاً عظيماً في كل منهما.

أصدر هذا الفتى الإسرائيلي الأريب مجلة له سماها:

أبو نظارة زرقاء:

وصدر العدد الأول من أعداد هذه المجلة في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هجرية. وبنى سياسته في هذه المجلة على التقريب بين مصر وجميع الدول الأوروبية باستثناء انجلترا، كما بناها على تصوير الظلم الذي يعانيه المصريون في عهد إسماعيل. وكان يلجأ في ذلك إلى (فن المحاورات) التي يتسلى بها العامة ويعتبر بها الخاصة.

والذي يقطع بأن (ابن صنوع) إنما كان يقصد بمحاوراته هذه شخصاً واحداً هو (إسماعيل) ما شاع في أيام هذا الخديوي من أنه كان إذا غضب على أحد من أصدقائه دعاه إلى قصر من قصوره وقدم إليه فنجاناً من القهوة دس فيه السم. فلا يكاد ضيفه يصل إلى بيته حتى يخر صريعاً، وتخفي الأسرة مع هذا سبب موته.

شاعت هذه الأخبار في أيام إسماعيل. فأشار إليه (بن صنوع) في بعض محاوراته حيث يقول:

أبو الشكر: يا مرحباً بك يابو نظارة.

أبو العينين: اتفضل اقعد ياعم وانجلى.

أبو خلاط: تريد تشرب إيه؟

أبو الشكر: أبو نظارة قتيل البيرة؟

أبو العينين: لا– الراجل يحب القهوة!

أبو نظارة: لا ياخويا– القهوة مااحبهاش لأنها خطرة في الأيام دي. واللي يشرب منها فنجان واحد يبرم!

أخذ أبو نظارة يهاجم في مجلته هذه الأمراء والوزراء والموظفين الأتراك والموظفين الأوروبيين. ذلك فضلاً عن مهاجمة الخديوي وكان لا يذكر هذا الخديوي بالشكر والثناء إلا في المواضع التي لا تستحق الشكر أو الثناء. وكان يشير إليه دائماً في محاوراته باسم "شيخ

الحارة". ويشير إلى الفلاح المصري باسم "أبي الغلب". ويشير إلى نفسه باسم "أبي نظارة" تارة، واسم "الحسيب القريب" تارة أخرى.

ونفي بن صنوع إلى باريس سنة ١٨٧٨. وهناك أصدر طائفة من الصحف الكثيرة هي في الحقيقة أسماء لصحيفة واحدة. ومن هذه الأسماء على سبيل المثال:

١- أبو نظارة زرقا.

٢- النظارات المصرية.

٣- أبو صفارة.

٤- الحاوي.

٥- أبو زمارة وهكذا.

الطور الثالث " طور الكفاح ضد الإحتلال"

(من سنة ١٨٨٢– إلى قيام الثورة المصرية
الكبرى سنة ١٩١٩)

وضع اللورد دوفرين لمصر النظام الجديد الذي يتفق ومصالح الاحتلال، ونص في نهاية هذا النظام على أن هناك أمراً لابد منه لجعل هذه الأنظمة فعالة ومثمرة، وهذا الأمر هو (الصحافة الحرة)، وعقب المؤرخ الإنجليزي (يونح) على هذا بقوله: إن مصر نالت بسبب ذلك حرية صحفية لم يعرفها شمال إفريقيا ولا غرب آسيا، وبسبب هذه اللغة من جانب اللورد دوفرين هذا أهمل العمل بقانون المطبوعات لسنة ١٨٨١.

ثم أتى اللورد كرومر لكي يعمل على تنفيذ هذه الأنظمة التي وضعها سلفه في مصر، فرأى أن يترك العنان للصحافة المصرية، وخلت تقاريره السنوية من الحديث عنها مدة كبيرة، ثم تحدث عنها فجأة في التقرير الذي كتبه سنة ١٩٠٣ وتضمن التقرير كلمته المأثورة:

"إن الصحافة المصرية عاشت عشرين سنة منذ الاحتلال بدون تاريخ" فما مدى الصدق أو الكذب في هذه العبارة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضينا النظر في الصحف التي أبقى عليها الاحتلال، والصحف التي حكم عليها بالتعطيل أو الإلغاء.

والواقع أننا حين ننظر في هذا الطور الثالث من أطوار الصحافة نرى أننا نستطيع أن نميز فيه فترات ثلاث:

(الأولى) وتقع بين سنتي ١٨٨٢م ١٨٨٩. وهي الفترة التي شهدت صحف: البرهان، والاعتدال، والسفير، والمقياس، والمقطم، واستمرت في الظهور صحف الوطن ومرآة الشرق والأهرام.

(الثانية) وتقع بين سنتي ١٨٨٩م، ١٩١٤. وهي الفترة التي شهدت أعظم الصحف الوطنية شأناً، وأجلها خطراً، وأدلها على صحافة الرأي في مصر، ومنها صحيفة (المؤيد) للسيد علي يوسف، وصحيفة (اللواء) لمصطفى كامل وصحيفة (الجريدة) لمحررها أحمد لطفي السيد.

(الثالثة)– وتقع بين سنتي ١٩١٤، ١٩١٩– وهي الفترة التي ركدت فيها الصحافة الوطنية، وحيل بينها وبين العمل المجدي، وذلك في أثناء الحرب العظمى.

الفترة الأولى ١٨٨٢ـ ١٨٨٩

وتستطيع هذه الفترة أن تعطينا جزءاً من الإجابة عن السؤال المتقدم، وهو "ما مدى الصدق أو الكذب في عبارة اللورد كرومر؟– تلك العبارة التي ذهب فيها إلى أن الصحافة المصرية عاشت منذ الاحتلال عشرين سنة كاملة بدون تاريخ".

فنحن حين ننظر في هذه الفترة نراها تقترن بعدد من الصحف الشعبية التي وجدت قبل الاحتلال، ثم ما كادت تفيق من غشيته حتى

شرعت تستأنف النضال، وتتعرض في أثناء ذلك للتعطيل حيناً والإلغاء حيناً آخر. ولا يتفق ذلك مطلقاً مع رأي اللورد كرومر في أن الصحافة المصرية وقفت ساكنة لا حراك بها بحيث أصبح اللورد لا يخشى سلطانها، ولا يخاف على نفسه وعلى الاحتلال منها.

لقد بدأ الاحتلال حياته في مصر بأن عمل على إلغاء الصحف الآتية: وهي صحف "الزمان، والسفير ومرآة الشرق، والصادق والفلاح، وبعبارة أخرى جميع الصحف التي كان ينفق عليها مختار باشا الغازي سفير تركيا في مصر، وأكثر الصحف التي تعتمد في بعض مواردها على القنصلية الفرنسية".

ولا غرابة في ذلك فقد جاء الاحتلال مهدداً لمصالح هذه الجهات الثلاث وهي:

- جهة الوطنية المصرية التي أصيبت في الصميم.
- وجهة السيادة العثمانية التي لم يعد لكرامتها وهيئتها الأولى وجود.
- وجهة المصالح الفرنسية التي أطاح بها السلطان الإنجليزي في مصر.

وأكثر من هذا وذاك أن أوامر التعطيل والإلغاء كانت تنسحب أحياناً على بعض الصحف الشعبية التي أخذت جانب الاحتلال، ومن

هذه الصحف على سبيل المثال (صحيفة الوطن)، فقد استقبلت الحكومة المصرية الجديدة والاحتلال البريطاني، أحسن استقبال، وحملت على عرابي ورمته بتهمة التعصب الديني، وتجنت عليه وعلى المصريين في هذا السبيل.

ويحسبنا بعد هذا كله أن نقف وقفة ما عند:

صحيفة الأهرام:

وقد عادت هذه الصحيفة إلى الظهور في الحادي عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٨٣، وهي وإن بدأت في تلك الفترة تحمل على (العاصي عرابي) وتمدح (الخديوي) وأنصار الخديوي، مجاملة في كل ذلك الاحتلال البريطاني، فإنها– أي الأهرام– أذهلت الرأي العام حين رآها المصريون في سنة ١٨٨٤م تنتقل على حين غرة في سياستها من الضد إلى الضد، فتترك المجاملات التي كانت تبذلها للحكومة والإنجليز بشجاعة، وتأخذ جانب الشعب المصري نفسه، وذلك في جميع القضايا التي كانت تشغل قلبه، ومن أهمها يومئذ: (قضية السودان). وقفت الأهرام تنقد الإنجليز الذين نصحوا المصريين بترك السودان، وكان معنى ذلك بطبيعة الحال انفراد الاحتلال البريطاني بحكم تلك البلاد، وهو ما لم ترض عنه صحيفة الأهرام، ولا رضيت عنه حكومة شريف الذي قال كلمته المشهورة: "إننا إذا تركنا السودان فإن السودان لن يتركنا". ومن أجل هذا وجدنا بشارة تقلايثني ثناء

مستطابا على شريف، ومن أجل هذا وجدت الصحافة الوطنية تشيد بموقف الأهرام، وتصفها بأنها ذات سياسة عثمانية مصرية، تدافع فيها عن المصالح الفرنسية، ولكنها لا تهمل الدفاع عن مصلحة مصر قيد أنملة.

ثم ما إن ظهر في ميدان الجهاد شاب عظيم الشأن، هو مصطفى كامل، وجاهر بالعداء ضد الاحتلال، وطالب الإنجليز بالجلاء حتى رأينا الأهرام تفسح له من صدرها، وتقف وراءه مؤيدة ومناصرة.

وهكذا توشك جريدة الأهرام في تلك الفترة من حياتنا السياسية أن تنفرد بحمل لواء الجهاد، وكان ذلك يغيظ الحكومة المصرية فكانت تأمر بتعطيل الأهرام، فيحتج لذلك القنصل الفرنسي، فتفرج الحكومة عن هذه الصحيفة.

نعم فمما لا شك فيه أن الأهرام كانت تميل إلى فرنسا، وكانت في رأيها هذا شبيهة بمصطفى كامل الذي كان هو الآخر يعول تعويلاً كبيراً على فرنسا. وبقى الحال على ذلك إلى أن حدث الاتفاق الودي بين انجلترة وفرنسا، وهو الاتفاق الذي أطلق أيدي الإنجليز في مصر في مقابل أن يسمحوا بإطلاق أيدي الفرنسيين في الجزائر.

وإذ ذاك كان على كل من مصطفى كامل والأهرام أن يعدلا نهائياً عن تلك السياسة.

والخلاصة أن ميول الأهرام نحو فرنسا في فترة ما لا يمكن أن يغض من هذه الحقيقة التي أشرنا إليها؛ وهي أن هذه الصحيفة هي التي وقفت وحدها في الميدان حتى ظهرت فيه عدة صحف وطنية من أخطرها صحيفة "المؤيد" للسيد علي يوسف. ولكن هذه الصحيفة الأخيرة سبقتها إلى الظهور صحيفة شعبية أخرى لا نستطيع أن نهملها وهي:

صحيفة المقطم:

وهي الصحيفة التي اعتمد عليها الاحتلال البريطاني. فأمدها اللورد كرومر بالمال، وبالأخبار وبالإعلان، وبكافة المواد الصحفية التي تكفل لها الرواج، وحين ظهرت "المؤيد" بعدها بعام واحد لقيت– على عكس ذلك– من صنوف الإيذاء والاضطهاد والحرمان ما شهد لصاحبها بالبطولة والمهارة، فقد كان "كرومر" يؤثر صحيفة المقطم بالأخبار الحكومية في الوقت الذي كان يحرم فيه "المؤيد" من هذه الأخبار الحكومية لتقل بذلك قيمتها الإخبارية في نظر الجمهور.

ومع هذا وذاك فسنرى كيف صبر السيد على يوسف واحتال للوصول إلى الأخبار الهامة، وأذهل بذلك الاحتلال البريطاني، وحمل عميده اللورد كرومر على مبارزة هذا الصحفي الأعزل من كل شيء، ثم شاءت الأقدار أن ينتصر السيد علي يوسف وينهزم جبار الاحتلال البريطاني في قضية هامة سنشير إليها بعد قليل هي قضية التلغرافات.

قام أصحاب المقتطف– بإيعاز من المعتمد البريطاني– بإنشاء صحيفة "المقطم"، وصدر العدد الأول منها في الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٨٨٨م وقالت إنها "صحيفة يومية سياسية تجارية هدفها خدمة المصالح الوطنية"، ثم جاء مسلك هذه الصحيفة مكذباً كل التكذيب لهذا العنوان العريض. وسرعان ما أدرك الرأي العام في مصر كل ذلك، وفهم أنها صحيفة إنجليزية، وكل أعمال الحكومة ممدوحة لديها، ثم جاء تصرف المحتلين مطابقاً لهذه الدعوى.

فإذا فكرت الحكومة المصرية في تعطيل "المقطم"، لأنها تهاجم الخديوي تصدى المعتمد البريطاني لحمايتها، وحال دون تنفيذ الحكم عليها. وأكثر من هذا وذاك أنه يثبت بالدليل القاطع أن كلا من نظارتي الداخلية والحربية كانت تخص "المقطم" كل عام بمنحة مالية؛ تشجيعاً لها على الدفاع عن المصالح البريطانية.

وازداد عداء الشعب المصري "للمقطم"، حتى ترجم هذا العداء إلى مظاهرات شعبية هاجمت الصحيفة وقذفتها بالحجارة، ومع هذا وذاك فقد صمدت الصحيفة في الميدان تساندها الحكومة من جانب، والاحتلال من الجانب الآخر، حتى ضاقت الأمة المصرية ذرعاً بها، وفكر بعض الوطنيين في إنشاء صحيفة مناهضة لها، وهي صحيفة المؤيد. وهنا تبدأ فترة أخرى من فترات هذا الطور الثالث من أطوار الصحافة المصرية سنفردها بالكلام فيما يلي:

الفترة الثانية ١٨٨٩ـ ١٩١٤

وفيها ظهرت صحف كثيرة من أهمها:

- صحيفة المؤيد للسيد على يوسف سنة ١٨٨٩.
- صحيفة الأستاذ للسيد عبدالله النديم سنة ١٨٩٢.
- صحيفة المنار للسيد رشيد رضا سنة ١٨٩٨.
- صحيفة اللواء لمصطفى كامل سنة ١٩٠٠.
- صحيفة (الجريدة) لمحررها أحمد لطفي السيد سنة ١٩٠٧.
- صحيفة العلم وهي لسان الحزب الوطني سنة ١٩١٠.
- صحيفة الشعب وهي لسان الحزب الوطني كذلك سنة ١٩١٣.

وهذا كله عدا صحيفتي الأهرام، والوطن وغيرهما.

صحيفة المؤيد:

وصاحب هذه الصحيفة كما قلنا هو السيد علي يوسف، كان شاباً أزهري النشأة، ثم بدا له أن يفر من الأزهر إلى الحياة العامة. وإذ ذاك اختار لنفسه مهنة الصحافة.

يقول الأستاذ تشارلز آدمز في كتابه (الإسلام والتجديد) عن صاحب المؤيد.

"كان السيد علي يوسف صحفياً ماهراً، وله دهاء ومكر أحياناً، ولقد رفع المؤيد إلى مكان الصدارة في العالم العربي، فأحاط الخديوي عباس هذه الصحيفة برعايتة، وشملها بحمايته وأصبح الشيخ علي يوسف يسير في ركاب الخديوييحيث سار، وأخلص له إخلاصاً يفوق إخلاص مصطفى كامل لهذا الجالس على العرش. وقد وجه السيد علي يوسف سياسة المؤيد وجهة خاصة، فجعله يوماً للدعوة إلى الرأي المحافظ، وكان في نظر خصومه– على الأقل– يهيج كوامن التعصب الديني.

ويقول الخديوي عباس في مذكراته:

"كنت أود أن يكون لي صحيفة قادرة على أن تثير الشعب المصري وتقوده شيئاً فشيئاً إلى إدراك أكثر وضوحاً لكلمة الوطن وواجبات المواطن، فدعوت كاتباً من كتاب اللغة العربية كنت قد سمعت عن صفاته ومزاياه– هو الشيخ علي يوسف، وكان خارجاً من الجامعة الأزهرية، وكان قد لفت إليه الأنظار– إن لم يكن باتساع أفقه الفكري، فبحماسته في المناقشة، وبموهبته الحقيقية في الجدل. وبقدرته المعروفة في هضم المسائل، وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم إلا العربية، ولم يدرس إلا في الجوامع".

ولقد عرفت مصر كاتبا آخر شبيها في نشأته بالسيد على يوسف، ومتحيزاً مثله لجانب الوالي الشرعي للبلاد أياً كان، وهذا الكاتب الذي نقصد إليه هو الشيخ حمزة فتح الله محرر جريدة "البرهان" ثم جريدة " الاعتدال". ولكن الفرق عظيم جدا بين هذين الكاتبين:

أما أحدهما– وهو السيد على يوسف– فكان كما ذكرنا رجلاً ذا دهاء ومكر وسعة حيلة أعانته على أن يكون صحفي مصر السياسي في أدق فترة من فترات حياتها– وهي فترة الاحتلال البريطاني، أو بعبارة أدق– كان رجلاً نصفه للأمير، ونصفه للجماهير، ومع ذلك لم يحاول أن يميل بصحيفته إلى جهة منهما على حساب الثانية.

وأما الآخر– وهو الشيخ حمزة فتح الله– فكان رجلاً رجعياً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، اشترك في تحرير "البرهان" التي صدرت بالأسكندرية سنة ١٨٨١م، فجعل منها صحيفة للسراى، وراح يزهو بهذه النسبة، ويملأ صفحات جريدته بالحمد والثناء على الخديوي، حتى وصفه بأنه (آيه من آيات الدهر،إذا رأيته ألقيت في محياه ما يجذب الأفواه للتسبيح. لا سيما إذا ترقرق ماء البشر في غرته، وتفتق نور المجد من أسرته) الخ.

وتتحمس الصحف كلها للشورى، وتؤيدها بكل ما تملك من قوة، ويأبى الشيخ حمزة فتح الله إلا أن ينفرد برأي في الشورى يتم لقبه أولى الأمر وذلك حيث يقول:

فأما الشورى– وإن كانت ممدوحة عقلاً وشرعاً بما ورد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة في غير موضع، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتما على أولى الأمر؛ بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم، ولا تنفذ أحكامهم، لأن هذا ما لا يقول به أحد":

فأين هذا كله من دفاع السيد على يوسف عن نظام الشورى في البلاد، ومن بلائه الحسن في مكافحة الاحتلال وما جره عليها من فساد؟؟ وأين هذا كله من دفاع شاب كأديب أسحق عن الحرية وعن الكرامة المصرية؟ ثم أين هذا كله من مواقف النديم المشهورة في صحيفة الأستاذ! وكلها ذود عن الحرية ونظام الشورى؟

الحق– لقد كان الشيخ حمزة فتح الله رجلا بعيداً عن العصر الذي عاش فيه، ولم يكن كالنديم وغيره من الصحفيين النابهين قطعة من ذلك العصر، وصورة مما جرى لأهله.

منذ فكر السيد على يوسف في إنشاء "المؤيد" وهو يصادف طائفة من المصاعب كانت كل واحدة منها كفيلة بإسقاطه لولا صفات خاصة في الرجل– هي تلك الصفات التي أشاد بها الأستاذ "تشارلز آدمز".

ومن تلك الصعوبات صعوبة آتته من "قلم المطبوعات"، وكان على رأسه إذ ذاك موظف إنجليزي، ومن ثم كانت للمؤيد قضايا مشهورة في تاريخ الصحافة من أهمها:

قضية التلغرافات:

ففي شهر مايو سنة ١٨٩٦ أصدرت نظارة الحربية أمراً بعدم إعطاء المؤيد أية معلومات عن الحملة المصرية على دنقلة، فوقع السيد على يوسف في حيرة شديدة: أيضر بصفحاً عن أنباء هذه الحملة مع أن أنباءها تهم الشعب، وجنود الحملة هم أبناء هذا الشعب؟ أم يفعل هذا الرجل كلما يستطيع حتى يصل إلى مايريد؟.

وفي ٢٦ من شهر يولية سنة ١٨٩٦– والساعة الثانية بعد الظهر– أخذ موظفو مكتب تلغراف الأزبكية يتلقون إشارة برقية من السردار بالسودان إلى ناظر الحربية بالقاهرة انتهوا منها في العاشرة والنصف مساءً، وفي هذا التلغراف يعتذر السردار عن تأخيره في الاتصال بالقاهرة بسبب الكوليرا التي تفشت في الجيش، وكان لها إصابات كثيرة.

ثم في يوم ٢٨ من يولية فوجئ ناظر الحربية بنشر هذا التلغراف برمته في صحيفة المؤيد، فهاج لذلك وهاجت معه السلطات الإنجليزية!

وتوالت على مكتب التلغراف بالأزبكية برقيات من هذا النوع ينشرها المؤيد كاملة في اليوم التالي. إذ ذاك فكر اللورد كرومر في حيلة يسوق بها السيد على يوسف إلى المحاكمة، وذكر كرومر أن القانون العام يعاقب الموظف الذي يعمل على إفشاء أسرار الحكومة،

وعلى هذا ففي وسع كرومر أن يقدم الموظف المسئول في مكتب التلغراف بالأزبكية إلى المحاكمة بهذه التهمة، وفي وسعه كذلك أن يقدم معه السيد على يوسف بتهمة الاشتراك في هذه الجريمة.

وسُئل السيد على يوسف في المحكمة عن المصدر الذي اعتمد عليه في هذه البرقيات؟ فأجاب بأن سر المهنة يحول دون تصريحه بشيء من ذلك؛ لذلك عجزت النيابة عن أن تلفق له تهمة يعاقب عليها.

ثم في يوم النطق بالحكم احتشدت الجماهير في ساحة المحكمة حتى لم يكن فيها موضع لقدم واحدة، وتوافد الناس من الأقاليم ليشهدوا بأنفسهم ذلك اليوم، حتى لقد ضاقت بهم فنادق القاهرة.

ثم في يوم ١٨ من شهر نوفمبر صدر الحكم ببراءة السيد على يوسف فهتفت له الجموع، وصفقت له وهللت، وأقبل بعضهم يهنيء بعضاً بهذا الحكم، ثم انهالوا على صاحب المؤيد فحملوه على الأعناق وخرجوا به من ساحة المحكمة، وكان يوماً مشهوداً في تاريخ الشعب المصري، إنتصر فيه انتصارا باهرا على اللورد كرومر.

وحسبنا ذلك لننتقل إلى الكلام عن صحيفة أخرى هي:

صحيفة اللواء:

ولهذه الصحيفة في الحقيقة من اسمها نصيب كبير، فهي التي حملت لواء الحركة الوطنية، وبقيت تحمل هذا اللواء حتى بعد وفاة صاحبها الزعيم الشاب مصطفى كامل، ولقد صدر العدد الأول من هذه الصحيفة يوم الثلاثاء غرة رمضان سنة ١٣١٧ وهو الموافق لليوم الثاني من شهر يناير سنة ١٩٠٠، وقد رسمت الصحيفة لنفسها إذ ذاك برنامجا يتألف مما يلي:

أولاً– الدفاع عن فكرة الجامعة الإسلامية باعتبارها الطريق الوحيد فينظرها للتخلص من الاحتلال البريطاني.

ثانياً– تنشيط الحركة الوطنية بكل الوسائل والترويج لها بكل الطرق.

ثالثاً– تربية الأمة المصرية تربية سياسية بحيث تصبح في أقرب وقت ممكن أهلاً للاستقلال والحرية.

رابعاً– توجيه الرأي العام المصري أحسن توجيه وأكمله في ميدان الإصلاح الاجتماعي.

خامساً– الدفاع عن الدين الإسلامي ضد هجمات الاستعمار الأوروبي.

وفي سبيل الهدف الأول من هذه الأهداف انطلقت الصحيفة تؤلف بين المصريين والأتراك باعتبار أن دولتهم "هي التي تحمي المسلمين، وتحفظ البلاد المقدسة الطاهرة من أعداء الدين، ولأنها زعيمة العالم الإسلامي في الوقت الحاضر بدون منازع".

وفي سبيل الهدف الثاني– وهو الحركة الوطنية– انبرت اللواء تدافع عن المصريين في كل موقعة من المواقع التي اصطدموا فيها بالاحتلال البريطاني، وكان لهذه الصحيفة قبل هذا كله أكبر الفضل في أنها خلصت المصريين من اليأس الذي ملأ نفوسهم

وران على قلوبهم بازدياد النفوذ البريطاني– ولا سيما بعد حادث فاشودة، واتفاق السودان، فإذا المصريون بتأثير هذه الصحيفة يدب الأمل في قلوبهم، وينقادون للحركة التي قام بها زعيمهم الشاب مصطفى كامل.

وقد كان لهذا الزعيم طرق كثيرة في بعث الروح الوطنية في المواطنين، ومنها على سبيل التمثيل:

أولاً– تحرير المقالات في اللواء– يسرد فيها تاريخ الأمم الحية، ويشيد بمواقفها في ميدان الكفاح من أجل الحرية.

ثانياً– تحرير المقالات كذلك في سير العلماء والعظماء الذين اشتركوا في بناء الأمة المصرية، وكان لهم فضل لا نكران له في تقدمها.

ثالثاً– تحرير المقالات في سبيل الدعوة إلى تأسيس المدارس على نفقة الشعب المصري، وعد مالاعتمادفيشيء منذلكعلىالحكومة. وكان هو من أول الذين قاموا بتنفيذ هذة الفكرة بل كان هو أول داع في الحقيقة لإنشاء "الجامعة المصريه".

رابعاً– العنايه بتسجيل الحوادث الوطنية في صحيفة اللواء والكتابة من حين لآخر في ذكرى هذه الحوادث. وكان من كبرها حينذاك:

حادثة دنشواي:

وهى المأساة المشئومة على الاحتلال البريطاني، لأنها انتهت بسقوط اللورد كروم عن كرسى العهادة في مصر. وإذ ذاك تم لصاحب اللواء أكبر ما كان يتم لبلاده من نصر.

ويومها كذلك نشر هذا الرجل مقاله المشهور بعنوان:

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن

بتاريخ ١٨من يوليةسنة ١٩٠٦

وفيها سرد الكاتب هذه القصة. ثم قال:

"ولكن _ ما عرفها أصحاب الأمر من الإنجليز في مصر حتى فقدوا رشدهم، وثاروا لقيام المصريين بالدفاع عن انفسهم وعن املاكهم، وبدلاً من أن يقابلوا الحادثة بسكون ورباطة جأش، وينظروا إليها كما ينظرون إلى غيرها من المعارك والمشاجرات التي من هذا النوع، بالغوا فيها، وجسموها، وأعلنت الصحف المواليه للاحتلال قبل المحاكمة أن العقوبات والعبرة التي ستضر بالناس ستكون هائلة. فلم تكن العدالة إذن هى المنشودة من المحاكمة بل كان المنشود هو الانتقام" إلى آخر ما جاء في هذا المقال.

الجريدة:

وإذا كانت صحيفة المؤيد هي لسان حزب الإصلاح على المباديء الدستورية، وكانت اللواء لسان الحزب الوطني الذي يرأسه مصطفى كامل، فإن الجريدة هي لسان حزب الأمة الذي هو أول الأحزاب المصرية ظهوراً في الحقيقة، ثم تلاه حزب الإصلاح، وأخيراً ظهر الحزب الوطني. وحدث هذا كله بين عامي ١٩٠٦، ١٩٠٧.

ومعنى ذلك أن الأحزاب المصرية الهامة ولدت في أحضان الصحافة، وتلك ظاهرة تستحق التسجيل، وفيها الدليل الذي ليس بعده دليل على خطورة الصحافة المصرية في تلك الفترة.

وقيل في السبب الذي من أجله ظهرت "الجريدة" أن حادثاً وقع إذ ذاك وكان له تأثير كبير في نفوس المصريين وعقولهم– وهو حادث

"العقبة"، وخلاصته أن الحكومتين التركية والمصرية اختلفتا على "العقبة"؛ كل تدعيها لنفسها دون الأخرى، وتدخلت انجلترا بينهما، فانتصرت لمصر على تركيا. ولكن الصحافة المصرية تنبهت لهذا الوضع، ولم تجز عليها الخدعة الإنجليزية في ذلك الوقت، ونصرت الأتراك على الإنجليز في هذه المشكلة، فذهل الاحتلاليون لهذا الموقف، وعاد الوطنيون في مصر يفكرون في الأمر، فكان من رأي لطفي السيد أن تنشأ جريدة مصرية تنطق بلسان مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص لتركيا أو إلى إحدى السلطتين الشرعية والفعلية في البلاد (يريد بالسلطة الشرعية الخديوي عباس وبالسلطة الفعلية لورد كرومر)، ورأى الأستاذ لطفي السيد أن تكون الجريدة ملكاً لشركة من أعيان البلاد أو أصحاب المصالح الحقيقية فيها وهم الذين ظن اللورد كرومر أنهم راضون عن الاحتلال، متوهماً أن حركة المعارضة لهذا الاحتلال لا يقوم بها إلا من ليس لهم مصالح حقيقية في البلاد، وهم طبقة الأفندية من جانب وباشوات الأتراك من جانب آخر. أما الأهداف التي سعت إليها (الجريدة) فتتلخص فيما يلي:

أولاً– نشر عقيدة الاستقلال بين أفراد الأمة المصرية ودحض الفكرة القائلة بأن مصر يمكن أن تحصل على استقلالها بمساعدة فرنسا وتركيا، مع أنه لا سبيل في الواقع إلى حرية المصريين إلا بجهود المصريين.

ثانياً– السعي لإزالة الفروق في الرأي بين المصريين وإحلال التشابه في العقيدة محل الخلاف فيها– وبعبارة أخرى– تكوين ما يسمى بالرأي العام المصري من جديد، وبذلك يتحد المصريون في أهدافهم مهما كانت آراؤهم.

ثالثاً– إنماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع، والنظر في الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها مستقلة عن غيرها من الدول ومنها الدولة العثمانية نفسها.

رابعاً– توجيه النقد إلى السلطتين الشرعية والفعلية في البلاد، والنظر في هذا النقد إلى مصلحة المصريين وحدهم، من غير تحيز لأحد الجانبين المذكورين في حال اختلافهما، أو في حال اتفاقهما، أو في الحال التي يكونان عليها بين بين.

خامساً– المطالبة بالدستور، والدأب على هذه المطالبة بعد إذ تبين للمصريين أنه يستحيل عليهم التقدم خطوة إلى الإمام إلا بمشاركة الأمة للحكومة في الأعمال العامة، ولن يكون ذلك إلا بحصول الأمة على الدستور ولو بالتدريج، وذلك عن طريق الدفاع عن مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين، وتوسيع اختصاصهما تمهيداً للوصول إلى حياة نيابية أقرب للكمال.

سادساً– الرد على مزاعم الإنجليز، وبخاصة ما جاء منها مخالفاً تقارير اللورد كرومر والدن غورست، حتى يثبت للعالم الحر أن مصر

خليقة بالكمال الذي تنشده، وأن الإنجليز ظالمون في نظرتهم للدين الإسلامي من جهة، وظالمون في تقديرهم للموظف المصري والكفاية المصرية من جهة أخرى.

سابعاً– الدعوة لمذهب الحريين؛ ليكون أساساً لتربية الأمة المصرية، ولحرية التعليم ولحرية القضاء، ولحرية الكلام والكتابة، ولحرية الاجتماع، وسائر أنواع الحريات الأخرى، مع العناية التامة ببرامج التعليم حتى يصبح ملائماً لأغراض الأمة والجيل الجديد.

ثامناً– النهوض بالحركتين العقلية والأدبية، وإفساح المجال للشبيبة المصرية لكي تظهر مواهبها المختلفة.

تاسعاً– العمل على تشجيع الصناعة والتجارة والزراعة حتى تبلغ كل منها الحد الذي يتفق وآمال البلاد.

عاشراً– العمل على تقوية الوحدة القومية مع اليقظة التامة لتوحيد عنصري الأمة المصرية– وهما عنصر المسلمين وعنصر الأقباط– حتى لا يجد المحتل ثغرة ينفذ منها إلى تحطيم الوحدة أو النيل من الحركة الوطنية.

وباختصار كانت (الجريدة) ومحررها أحمد لطفي السيد، تشترك مع (اللواء) ومحرره مصطفى كامل في الأهداف الوطنية. ولكنهما يختلفان اختلافاً كبيراً في الوسائل: فبينما مصطفى كامل يرى الاعتماد

على الدولة العلية، إذ بلطفي السيد لا يرى الاعتماد على هذه الدولة أو غيرها، بل على المصريين وحدهم دون غيرهم. وبينما دعا مصطفى في (اللواء) إلى ما يسمى (بالجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية)، إذا بلطفي السيد في (الجريدة) دعا إلى (الجامعة المصرية) أو (الجامعة القومية). وقال في ذلك:

" إن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانجلترة والدولة العلية، وعلينا ألا نعير سياسة الخلاف، أو سياسة الوفاق أية أهمية، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط في الحصول على حقنا في الدستور، وحقنا في الحرية. لابد لنا من ذلك، ومن عزة تربأ بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتي لتحرير أنفسنا من الرق وقلوبنا من عبادة القوى، كأننا– كما ظنوا خطأ بنا– ينبغي أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام".

مهما يكن من شيء فقد ضاق الاحتلال بصحف الحزب الوطني أكثر مما ضاق بصحف الحزب الوطني أكثر مما ضاق بصحف الأحزاب الأخرى، وكانت صحف الحزب الوطني معروفة بالتطرف في اللهجة، فتوالت إنذارات الحكومة لصحيفة اللواء، وكان لابد من تعطيلها أو القضاء عليها بأية وسيلة، فلم يجد الحزب الوطني بدا من أن يصدر اللواء بأسماء جديدة. فتارة يصدرها باسم "العلم" بفتح اللام، وقد تم له ذلك سنة ١٩١٠. وأخرى باسم "الاعتدال المصري" ونحو ذلك.

غير أن هذه الصحف كلها ألغيت تباعاً بأمر الحكومة، ولم يبق للحزب الوطني في النهاية غير صحيفة واحدة باسم:

صحيفة الشعب:

وقد صدرت هذه الصحيفة سنة ١٩١٣، وهي السنة التي شهدت في تاريخ مصر حدثاً من الأحداث الهامة في المجال الدستوري. وخلاصته أن الخديوي عباس حلمي الثاني– بضغط من الوطنيين وأصحاب الصحف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية– أصدر ما يسمى (بالقانون النظامي). وبمقتضاه ألغى المجلسين السابقين؛ ليحل محلهما مجلس جديد باسم "الجمعية التشريعية".

غير أن هذه الجمعية التشريعية لم تحقق رغبات البلاد، بل ظهر أنها لعبة جديدة من تلك التي كان يلعب بها الاحتلال. وبحسبنا أن نعرف أن هذه الجمعية التشريعية لم يكن من حقها محاسبة الوزراء.

إذ ذاك انبرى (أمين الرافعي) لمحاسبة الجمعية من جهة، ومحاسبة الحكومة والاحتلال من جهة أخرى على هذا النظام، وشرع يكتب المقالات الطوال في هذا المعنى، وفي بعضها يقول: "نعم– إن القانون النظامي الجديد عدل نظام الانتخابات، ومنح الجمعية التشريعية حق التشريع في مسائل محصورة، ولكنه فيما عدا ذلك وقف بالهيئة الجديدة حيث كانت الهيئات القديمة، بل رجع بها إلى الوراء؛ بأن حرم

عليها الخوض في مسائل لم تكن محرمة عليها قبل ذلك، وحول الحكومة حق حل هذه الهيئة إذا لم توافق على القانون المعروض عليها للمرة الثالثة".

وفي أخرى من مقالات الرافعي وجدناه يقول: "أعطونا حق إسقاط الوزارة، وخذوا لأنفسكم حق حل الجمعية التشريعية".

وفكرت الجمعية التشريعية في وضع لائحة داخلية للأعضاء، فحالت الحكومة المصرية– بوحي من الاحتلال– بينها وبين ما أرادت، فثار (أمين الرافعي) لذلك وأخذ يقول:

"لقد دهشت الصحافة الأفرنجية المحلية من ذلك، ومن منع الأعضاء من حق الكلام في أول جلسة، بل انتقدت بشدة موقف الرئيس عندما طلب سعد باشا زغلول الكلام لتهنئته بالرياسة، وانتقدت دعوة الرئيس لسعد زغلول أن يكون الكلام مقصوراً على الشكر، وتساءلت إحدى هذه الصحف عن أعضاء الجمعية: هل هم في مدرسة يقول ناظرها– والمقرعة في يده– أيها التلميذ سعد زغلول: قل الثلاثة الأسطر التي حفظتها واجلس في الحال؟

وأعلنت الحرب العظمى بعد ذلك في أغسطس سنة ١٩١٤، فمضت "الشعب" في صدورها إلى السابع عشر من ذلك الشهر، ثم اضطرت الحكومة المصرية– بإشارة من السلطة العسكرية– إلى إصدار طائفة من القوانين الاستثنائية. ومنها قانون منع التجمهر في ١٨ من

أكتوبر سنة ١٩١٤، ثم إعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة على الصحف في الثاني من نوفمبر، من نفس السنة، ثم إعلان الحماية البريطانية نفسها في الثامن عشر من شهر ديسمبر في نفس السنة كذلك.

وأصدرت الحكومة المصرية أمرها لجميع الصحف بنشر إعلان الحماية في صفحاتها الأولى، فكبر على نفس أمين الرافعي أن يلطخ صحيفة "الشعب" بهذا العار، وصمم على وقف الصحيفة عن الإصدار؛ فذلك أكرم له وللشعب المصري نفسه من أن تطبع صحيفة من صفحه وثيقة الإعدام والانكسار، وبالفعل تم له ذلك في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩١٤.

فذلك إذن هو العصر الذهبي للصحافة المصرية، بل تلك هي الفترة التي أطلق عليها المؤرخون اسم: "الطور الصحافي من أطوار الحركة الوطنية". والمؤرخون على حق في هذه التسمية؛ لأن صحافتنا قامت إذ ذاك بكل ما عليها من واجبات، وتحملت في سبيله من التضحيات ما جعلها ترقى إلى مرتبة أعلى الصحف في زمانها وفي بلاد غير بلادها.

فهل بعد هذا كله يحق لرجل كاللورد كرومر أن يقول في تقريره عن سنة ١٩١٣ "إن الصحافة المصرية عاشت منذ الاحتلال البريطاني عشرين عاماً بدون تاريخ"؟

أظن أن الواقع يكذبه بطريقة سافرة، وأن التاريخ نفسه يجبر قومه الآن على تمزيق التقرير الذي تضمن عبارة كتلك العبارة السابقة!!

وقد ظهر العدد الأول منها يوم الجمعة ٢١ من شهر يوليه سنة ١٩١٥ بمدينة القاهرة، وصاحبها هو عبدالحميد حمدي، ومن كتابها يومئذ محمد حسين هيكل، ومصطفى عبدالرازق، ومنصور فهمي، وأحمد أمين.

والحقيقة أن (السفور) كانت امتداداً (للجريدة) التي كان يحررها أحمد لطفي السيد، وكان معه في تحريرها طائفة من الشباب المثقف ممن عز عليهم أن ينقطع نشاطهم الفكري بسبب الحرب، وبسبب اختفاء (الجريدة) عام ١٩١٥، فاتفقوا على إصدار هذه الصحيفة الجديدة، واتفقوا على ألا يخوضوا فيها– على أية حال– في السياسة.

وفي صحيفة السفور أتم أولئك الشبان المثقفون من تلاميذ الأستاذ أحمد لطفي السيد رسالة التجديد التي بدأوها من قبل في "الجريدة"، واكتفوا بهذا القدر من النشاط حتى قامت الثورة الكبرى سنة ١٩١٩.

الطور الرابع"طور استكمال الحرية والدستور"

(من سنة ١٩١٩– إلى سنة ١٩٢٨)

تمهيد

منذ الاحتلال البريطاني الذي فرض نفسه على البلاد في عام ١٨٨٢ للميلاد، والمصريون يقاسون ألواناً من العسف والظلم، ومن الضغط والذل ربما تنوء بها الشعوب الأخرى، فلقد أطاح الاحتلال باستقلالهم الداخلي الذي أقرته معاهدة سنة ١٨٤٠، كما أطاح الاحتلال بدستورهم الذي نالوه على يد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢. ومنذ ذلك الوقت ولمصر قضية كبرى ذات شقين: أولها الاستقلال، وثانيهما الدستور.

ومن ثم أصبح للصحافة المصرية في ذلك الطور هذان الهدفان اللذان سعت إليهما سعياً حثيثاً، حتى نالتهما في النهاية. وحينذاك مارس المصريون حياة دستورية صحيحة، وأصبح لهم دستور ينص على حق النواب في مناقشة الوزراء.

وتلك هي المرة الثانية التي نجحت فيها صحافتنا الوطنية الماجدة في أن تكون صحافة رأي بالمعنى الصحيح، المرة الأولى عندما كانت تناضل الاحتلال وتناقشه الحساب. وإذ ذاك ظهرت صحف المؤيد واللواء والجريدة. والمرة الثانية بعد قيام الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩ ونجاح هذه الثورة في تحقيق الأهداف التي سعت إليها.

وفي تلك الأثناء تعرض الشعب المصري لطائفة من المحن الشداد كادت تفضي إلى فنائه، وتذهب بكيانه وكثير من مقوماته. ومن هذه

المحن الشداد محنة الحرب العالمية الأولى أو الحرب العظمى، وفيها عصف الاحتلال بكل ما لمصر إذ ذاك من مال ورجال؛ وكتم أنفاس الصحافة المصرية، وأغلق دونها الأبواب.

ثم من تلك المحن الشداد محنة الثورة المصرية سنة ١٩١٩، وفيها تعرض الشعب والقادة للاضطهاد بكل صوره وأشكاله. وهو اضطهاد كتب للمصريين فيه صفحة المجد، وكان كالنار التي تصهر الذهب لتكشف عن أصالته وصفاء عنصره.

ثم منها– أي من تلك المحن– منحة الإنقسام الداخلي؛ وذلك بسبب المفاوضات بين مصر وانجلترا، وهو انقسام أفادت منه هذه الأخيرة في أول الأمر. وفي جو هذا الإنقسام ظهرت نفوس ضعيفة خبيثة، تألف منها ومن القصر الملكي والمعتمد البريطاني أحجار ثلاثة وضعت عليها (الوطنية المصرية) في قدر فأحرقتها حتى أنضجتها، وخرجت هذه الوطنية المصرية من هذه النار صافية كالذهب.

شهد هذا الطور الرابع من أطوار الصحافة المصرية طائفة من الصحف الشعبية؛ كانت كل واحدة منها تحمل في طياتها من دلائل التجديد ما ينبيء بوضوح عن مستقبل حسن للصحافة من حيث هي.

وكان يشترك في تحرير تلك الصحف الشعبية كثير من الشخصيات الكبيرة، بعضهم من المصاحفين[1]– أعني من غير المحترفين– أو رؤساء التحرير، وبعضهم من المنقطعين فعلاً لتحرير هذه الصحف. وكانت الفئتان– فئة المصاحفين وفئة المحترفين– تجاهدان جهاداً عظيماً، في الميدان السياسي تارة، والميدان الثقافي تارة أخرى.

وعلى الرغم من أن قانون المطبوعات كان لا يزال قائماً إلى تلك الفترة، فإن الصحف المصرية كانت تتمتع بقسط كبير من الحرية أفضى بها إلى الدخول في أدق المسائل السياسية، وحملها مسئولية الفشل في بعض المراحل التي مرت بها القضية المصرية؛ ومن هنا أخذت هذه الصحافة على عاتقها مهمة الدفاع عن القضية الوطنية أولاً، والدفاع عن الدستور المصري ثانياً، والعمل على إكمال النقص الذي بدا فيما حصلت عليه الأمة من استقلال آخر الأمر.

(وبعد) فقد كان من أولى صحف الطور الذي نتحدث عنه:

---

(١) المصاحف هو الكاتب الذي يوافي الصحيفة بمقالاته ومواده الصحفية بين حين وآخر دون أن يكون من أعضاء أسرة التحرير فيها.

صحيفة الأخبار:

احتجبت صحيفة (الشعب) ومعها كثير من الصحف المصرية مدة خمسة أعوام، هي أعوام الحرب العظمى، وعلى أثر ذلك نشبت الثورة المصرية الكبرى، وارتفع صوت مصر بطلب الاستقلال. وإذ ذاك عادت بعض الصحف للظهور من جديد، ونشأت صحف لم يكن لها من قبل وجود، وكان من هذه الأخيرة "صحيفة الأخبار" ومحررها الأول هو الأستاذ أمين الرافعي.

صدر العدد الأول من هذه الصحيفة في الثاني والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٠، وصرحت منذ صدورها بأن الغرض الأول لها هو الدفاع عن القضية المصرية. وفي ذلك يقول أمين الرافعي:

"وليست القضية المصرية صعبة الدفاع، ولا هي في حاجة إلى الشرح الطويل؛ فإننا لا نبغي سوى حريتنا. وما كان لأحد أن يدعي شيئاً في هذه الحرية التي هي ملك لنا وحدنا. ولو كان للإنصاف وجود في المعاملة السياسية لما تردد مؤتمر الصلح عقب الحرب في الحكم لنا. ولكن الذين أقاموا أنفسهم للفصل بين الشعوب خضعوا لمطالبهم، وطرحوا الحق جانباً، وانصرفوا إلى إرضاء بعضهم بعضاً. وهكذا لا يظهر الأقوياء لنا في مظهر القوة إلا لأننا قد قبلنا الخضوع لهم، وجثونا أمامهم. ولكنا إذا نهضنا جميعاً نلنا حريتنا، ونجونا من أسرهم".

وباختصار– كانت الغاية القصوى من صدور هذه الصحيفة– كما صرحت بذلك– هي الدفاع عن القضية المصرية وحدها على أساس الاستقلال التام. وفي ذلك يقول أمين الرافعي كذلك:"فنحن إذن لا نخدم في الأخبار هيئة خاصة، ولا نعبر عن رأي طائفة بالذات. وإنما نخدم أمة، وندافع عن مبدأ واحد، هو الاستقلال التام للبلاد المصرية".

وقد كان لهذه الصحيفة التي يحررها أمين الرافعي شأن كبير، في المفاوضات الرسمية، والمفاوضات غير الرسمية بين المصريين والإنجليز. ووقف أمين الرافعي وراء سعد زغلول منذ أول الأمر، يشد أزره في هذه المفاوضات، ويعمل على حماية وحدة الأمة حتى لا تحدث فيها ثغرة ينفذ منها العدو؛ لهذا كان لأمين الرافعي في صحيفة الأخبار مواقف مشهورة من أجل الدستور، والدفاع عن الحياة النيابية السليمة في فترة مظلمة كانت مصر في أثنائها– كما قلنا– كرةً تتلقفها جهات ثلاث:

أولها– جهة القصر الملكي.

والثانية– جهة الوزارة.

والثالثة– جهة المندوب السامي البريطاني.

وكل واحدة من هذه الجهات تجر الدستور إلى ناحيتها، وتحاول ألا تكون فيه مادة متعارضة تعارضاً واضحاً مع مصلحتها.

وافتتح البرلمان في شهر مارس سنة ١٩٢٣ واقترن ذلك بفوز (الوفد) بأغلبية ساحقة جعلت من حق سعد زغلول أن يؤلف الوزارة. وحينئذ وضعت البلاد في مأزق لا تحسد عليه من وجهين:

الأول– اجتماع الزعامة الشعبية ورياسة الحكومة المصرية في يد واحدة هي يد سعد زغلول، وكان من رأي المفكرين الأحرار أن يكتفي سعد بالزعامة الشعبية، ويقيم من نفسه حارساً على الحياة النيابية، ورقيباً على تصرفات الحكومة.

والثاني– ضيق أصحاب المناصب المرموقة في الحكومة، وضيق السياسيين الذين تربوا في مدرسة الوظائف بالحياة النيابية الجديدة.

وبسبب هذين العاملين السابقين تعرضت الحياة النيابية الجديدة لمحن شديدة:"فمن تأجيل وتعطيل وحل وتعديل لنظام الانتخابات على غير الطريق الدستوري السليم، إلى تعرض للحقوق والحريات على وجه لا يرضي الحق ولا العدالة ولا الضمير. ثم لا يقل عن كل ذلك سوءاً التسليم للسلطات الإنجليزية بما تريد حتى لقد أصبحت تلك السلطات في النهاية هي الحكم بين المصريين".

فكيف كان موقف "الأخبار" من هذا البرلمان الجديد؟

لقد كان أمين الرافعي ينتظر من هذا البرلمان: أن ينجح في هذه الأمور:

أولاً– في حل مشكلة المفاوضات بما يحقق أماني البلاد.

ثانياً– في حل مشكلة السودان، وقد أصرت مصر يومئذ على أن السودان جزء منها وأصر الإنجليز على فصل السودان عنها.

ثالثاً– في الدفاع عن الحريات العامة.

رابعاً– في إعادة النظر في جميع القوانين التي أصدرتها السلطة العسكرية في غيبة الدستور المصري.

غير أن الوزارة الشعبية برياسة زغلول لم تكن تستطيع أن تصنع المعجزات، بل إن زغلولاً نفسه كان مفيداً بالنظرة الواقعية للأشياء. ومن هنا اتسعت هوة الخلاف بين الصحافة والحكومة. بل من هنا وقعت بين سعد زغلول وأمين الرافعي خصومة عنيفة، وذلك منذ خطب سعد خطبة فهم منها أمين أن سعداً أصبح يقبل استئناف المفاوضات دون أن يفكر في (تعديل الأساس) الذي ينبغي أن تقوم عليه هذه المفاوضات، وهو هنا إلغاء الحماية البريطانية، ورفع الأحكام العرفية، وقبول الإنجليز للتحفظات المصرية؛ وكلها أمور قال بها سعد قبل تولى الحكم، ثم ظهر من خطبه وأحاديثه أنه أخذ يعدل عنها بعد ذلك. وبحسبنا ذلك في الكلام عن "الأخبار" لننتقل منها على الكلام عن:

صحيفة السياسة:

تألف حزب الوفد المصري برياسة سعد زغلول للمطالبة بحق مصر في تقرير مصيرها بعد الحرب العظمى. وتساءل الناس يومئذ– ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل– عما إذا كان الوفد قد رسم لنفسه خطة ما إذا حدث أن الحظ أخطأه وأخفق في تحقيق مطالب الأمة. وذهب هيكل يعرض هذا السؤال على أستاذه أحمد لطفي السيد. فأجابه هذا بقوله: إن الوفد ذاهب إلى باريس لعرض قضية مصر على مؤتمر السلام، فإذا أجيب إلى طلبه فذاك، وإلا فسيذهب حسين رشدي وعدلي يكن إلى لندن؛ لمطالبة الحكومة الإنجليزية بما ترجوه الأمة.

ومنذ ذلك الحين حدث انقسام كبير في صفوف المصريين: فريق يرى أن سعد زغلول– وهو الوكيل المنتخب في الجمعية التشريعية وبيده توكيل عن الأمة– أحق بأمر المفاوضات في أمر هذه القضية. وفريق آخر يرى أن من حق الحكومة المصرية أن تتولى بنفسها المفاوضات مع الحكومة البريطانية.

وقد كان على رأس الحكومة المصرية إذ ذاك "عدلي يكن"– وهو الوكيل المعين لا المنتخب في الجمعية التشريعية، ثم هو رجل مشهود له بالكفاية والحرص كل الحرص على الكرامة الوطنية.

وأخيراً وبعد لأي صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، وهو التصريح الذي اعترف باستقلال مصر. غير أن سعد زغلول– وكان غائبا

عن بلاده في المنفى في ذلك الوقت– وصف التصريح بأنه "نكبة وطنية"، ووصف الاستقلال لذي أتى به التصريح بأنه استقلال مزيف.

ومهما يكن من شيء فقد ترتب على هذا التصريح أمور منها:

النظر في أن يكون لمصر دستور تحكم به نفسها بنفسها. وصدر هذا الدستور بالفعل وذلك بعد عرضه على حكومة حسين رشدى. وعلى أثر ذلك ظهرت فكرة تهدف إلى تأليف حزب جديد أطلق عليه اسم "حزب الأحرار الدستوريين" يكون برياسة عدلى يكن، وينضم إليه جميع الأعضاء الذين اشتركوا في وضع الدستور. وتم الإعلان عن هذا الحزب في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٢، وصدرت صحيفة السياسة لمحررها محمد حسين هيكل معبرة عن آراء هذا الحزب يومئذ.

ومضت صحيفة السياسة، تدعو إلى احترام الحرية، وإلى العدالة الإجتماعية، وإلى التمسك بالوحدة القومية، في الوقت الذي طفقت فيه صحف الوفد تشكك القراء في نيات هذا الحزب، وتمعن في ذلك إلى حد أن وصفته بالخيانة الوطنية. ومن ثم خاض هيكل وأصحابه معركة الصحافة الحزبية، وذلك ضد الأغلبية الوفدية. وناهيك بها معركة قوية بين نبي الوطنية سعد زغلول، والذين خرجوا عليه، وكفروا بالأمة وهم الأحرار الدستوريون!

وكان من نتائج ذلك، أنه لم يمض على إصدار صحيفته أكثر من تسعة عشر يوماً حتى أغتيل اثنان من رجال الحزب الذي تنطق بإسمه هذه الصحيفة، وهما حسن باشا عبد الرازق، وإسماعيل بك زهدي.

وإذ ذاك انبرى أحد محررى السياسة– وهو الأستاذ توفيق دياب– يكتب مقالاً عنيفاً بعنوان "أنتم قتلة الوطن"؛ حمل فيها حملة شديدة على الوفديين، ورماهم بتحريض الشباب البريء على ارتكاب جرائم القتل على هذا النحو.

ومن ذلك الوقت بدت "السياسة" وكأنها صحيفة الطبقة المعروفة بحرية التفكير، وبدت صحف "الوفد المصري" وكأنها صحف الغوغاء والعامة، وهم الأكثرية الساحقة في جميع الشعوب.

ومن أجل هذا رأينا نخبة من الشباب المثقف يهوي صحيفة السياسة، ويريد أن يشارك في تحريرها كذلك. ومن هؤلاء على سبيل المثال: طه حسين، ومحمود عزمي، وسيد كامل، وتوفيق دياب، وعبد القادر المازني، وعبد العزيز البشري، وعبد الله عنان وغيرهم كثيرون.

وكان أكثر هؤلاء من تلاميذ "الجريدة" الذين نشأوا في رحابها وتغذوا بلبانها، وكانت لهم مشاركة في نشاطها السياسي ونشاطها الثقافي، وهكذا ورثت "السياسة" عن الجريدة أسلوبها في التعمير وأسلوبها في التفكير، كما ورث "حزب الأحرار الدستوريين" عن "حزب الأمة" القديم اعتداله ونظرته الواقعية للأمور. وكل هذه أشياء باعدت

بينها وبين عقلية الجماهير، ومن هنا كان على "السياسة" أن تصمد لطغيان هذه الجماهير، ولكنها كانت تنتصر في النهاية على كل عقبة في الطريق. أراد سعد زغلول أن يجر هيكلاً إلى المحاكمة، بحجة أنه أهان البرلمان في مقال له بعنوان "حزب الستمائة". وهو مقال حمل فيه هيكل على الأعضاء الذين طلبوا رفع المكافأة البرلمانية إلى ستمائة جنيه في السنة، ونوقش هيكل في مقاله وبرأته المحكمة.

وسعى سعد زغلول مرة أخرى في محاكمة هيكل من أجل مقال له بعنوان "هلموا يا أنصار الحرية فادفعوا العدوان عن الحرية"، وأجرى له تحقيقاً اتهم فيه بالدعوة إلى قلب نظم الحكم في مصر. ومع أن هيكلاً لم يتراجع عن كلمة واحدة مما جاء في هذا المقال فإن المحكمة برأته وأفرجت عنه.

وأخيراً حوكمت "السياسة" في أخطر قضية لها في حياتها، وهي القضية المعروفة "بقضية نزاهة الحكم".

قضية نزاهة الحكم:

بدأت السياسة حملة قوية على أحد الوزراء في وزارة عبد الفتاح يحيى– كان قد اتخذ من الحكم أداة لتحقيق المنافع الشخصية وبدأ التحقيق مع الدكتور هيكل بوصفه محررا لهذه المقالات، وأثار التحقيق

مع كبار الساسة في أثناء ذلك انتباه الرأي العام، فوقف يرقب ما ينتهي إليه في هذه المسألة الهامة وطال هذا التحقيق، وانتهى كذلك ببراءة "السياسة" وبراءة محررها، وكان يوماً مشهوراً من أيام الشعب، يذكر باليوم الذي نظرت فيه قضية التلغرافات للسيد على يوسف صاحب المؤيد– مع الفارق الكبير بينهما: فقضية التلغرافات كانت بين صاحب المؤيد وجبار الاحتلال البريطاني وهو اللورد كرومر. في حين أن قضية نزاهة الحكم، كانت بين محرر السياسة والحكومة المصرية في موضوع مس قلوب المصريين وهز مشاعرهم إلى حد كبير وهو موضوع نزاهة الحكم.

السياسة الأسبوعية:

وفي شهر أبريل سنة ١٩٢٦ بدأ لأصحاب "السياسة" أن ينشئوا أختا لهذه الصحيفة، وسموها "السياسة الأسبوعية" وألقوا عليها عبيء النشاط الثقافي والاجتماعي، وقصروا الصحيفة الأولى على النشاط السياسي، وشارك الدكتور هيكل كذلك في "السياسة الأسبوعية" فأخذ يكتب في الاتجاهات الفكرية والأدبية والنقدية، ونشر فيها فصولاً من كتبه "ثورة في الأدب" و "في أوقات الفراغ" و "حياة محمد".

ولا يسع مؤرخ الصحافة إلا أن ينظر إلى صحيفة السياسة، على أنها تعتبر بحق "رائدة" الطور الرابع من أطوار الصحافة المصرية.

فإذا ذهبت تسأل عن سبب ذلك؛ وجدت الإجابة في أمور كثيرة، منها على سبيل المثال:

"أولاً"– إن صحيفة السياسة كانت من أكثر الصحف المعاصرة لها استخداما لكبار الكتاب والمفكرين، وإفساحاً لهم في مجال الكتابة فيها على اعتبارهم "مصاحفين" لا "صحفيين محترفين"؛ ولذلك حرصت السياسة على استكتاب الأساتذة: عبد القادر المازني، وعبد العزيز البشري، وطه حسين، وعلى عبد الرازق وغيرهم. وقد استطاع هؤلاء الكتاب– ومعهم الدكتور محمد حسين هيكل أن يخلقوا ثورة في الصحافة المصرية من الناحيتين الأدبية والفكرية؛ وذلك بما نشروا في صحيفة السياسة الأسبوعية– بنوع خاص– من المقالات الثورية في عالم الأدب والاجتماع والتاريخ والفلسفة. وبحسب القاريء أن نذكره هنا بمقالات الأستاذ على عبد الرازق التي جمعت فيما بعد في كتاب: "الإسلام وأصول الحكم" وهو الكتاب الذي ناقش فكرة الخلافة الإسلامية، وأهاج عليه الرأي المحافظ في مصر والشرق. وحسب القاريء أن يذكر كذلك بأن صحيفة السياسة هي التي حمت الدكتور طه حسين من بطش الحكومة بعد نشره كتاب: "الشعر الجاهلي". بل حسب القاريء كذلك أن نذكره بمقالات المازني وهي عبارة عن قصص في إطار مقالات كانت نوعاً جديداً في فن المقال من حيث هو. ثم حسب القاريء أخيراً أن نذكره بالمقالات النقدية الاجتماعية التي كتبها الأستاذ عبد العزيز البشري، وجمعت بعد ذلك في كتاب عنوانه: "في المرآة"، وفيه صور كاريكاتورية إقليمية لكثير من

الشخصيات البارزة في الأمة المصرية كانت هي الأخرى لوناً جديداً من ألوان المقال.

"ثانياً"– من الأمور التي جعلت من صحيفة السياسة رائدة ومبشرة بالعهد الجديد في الصحافة قدرتها الفنية التي مكنتها من التنويع في فنون المقال، ومن الإكثار والإجادة لفنون صحفية أخرى؛ مثل فن التحقيق الصحفي، وفن الحديث الصحفي، وفن الماجريات[1] وخاصة الماجريات البرلمانية التي كان يتولى تحريرها الدكتور محمود عزمي. وتلك كلها عناصر للتجديد لم تتوفر لصحف أخرى.

"ثالثا"– يضاف إلى ما تقدم عناية (السياسة) كذلك بالمظهر الخارجي لأسرة التحرير. والحق أن هذه الصحيفة تعتبر من أولى الصحف المصرية عناية بمندوبيها ومحرريها؛ تعني بهم من ناحية المظهر، وتمنحهم المال الذي يتجملون به في الحفلات الرسمية وغير الرسمية حتى يتمكنوامن غشيان هذه المجالس ومن الحصول على مايهم الصحيفة؛ من أخبار المجتمع المصري على اختلاف طبقاته. ولم تقف عناية الصحيفة بمحرريها إلى هذا الحد حتى وجدناها تقسمهم إلى أقسام: فتجعل بعضهم لأمور السياسة، وبعضهم لأمور الاقتصاد، وبعضهم للأدب والفكر والفن وهكذا. وأخيرا وجدنا لهذه الصحيفة

---

(١) الماجريات: جمع ما جرى وهي مؤلفة من كلمتين هما: ما وجرى ويقصد بها في الصحافة إلى المناقشات البرلمانية أو القضائية أو الدولية أو الدبلوماسية.

عناية كبيرة بعنصر "الصورة" في الصحافة، وتقديراً كبيراً لقيمتها الإخبارية. من أجل هذا وذاك نستطيع نحن أن ننظر إلى الأستاذين حافظ عفيفي، ومحمد حسين هيكل– وهما المهيمنان على هذه الصحيفة– على أنهما الأستاذان الحقيقيان للمدرسة الحديثة في الصحافة. والآن ندع صحافة الأحرار الدستوريين لنأخذ في الحديث عن صحافة الوفد، ومن أهم صحف هذا الحزب "البلاغ" ثم "كوكب الشرق". وسنكتفي بالكلام عن الأولى على سبيل المثال: صحيفة البلاغ: لم يكن للوفد المصري صحف رسمية خاصة به، بل كان يدافع عن هو عن القضية الوطنية رجل واحد فيأولا لأمر– هو أمين الرافعي– في صحيفة الأخبار". ثم تولى الدفاع عنه رجل آخر هو عبد القادر حمزة في " الأهالي". وبقي الحال على ذلك حتى فكر الوفديون في أن تكون لهم صحيفة خاصة بهم كما أن للأحرار الدستوريين صحيفتهم الخاصة بهم كذلك. ومن ثم صدرت "البلاغ" لمحررها الأستاذ عبدالقادر حمزة سنة ١٩٢٣، وكان من أسرة التحرير في هذه الصحيفة رجال لهم شهرتهم في الميدانين: السياسي والثقافي. ومن هؤلاء: الأستاذ عباس محمود العقاد، والأستاذ أحمد حافظ عوض صاحب جريدة "كوكب الشرق" فيما بعد. والحق أن كلا من هذين الرجلين قام بالدور الذي قام بها لكتاب الرواد في صحيفتى: "السياسة اليومية، والسياسة الأسبوعية". وكما كان كتا بصحيفة السياسة طلائع النهضة الفكرية الحديثة في مصر والشرق، فكذلك كان الأستاذ عباس محمود العقاد بوجه خاص من أولئك الرواد الذين لهم فضل كبير على الأدب

والفكر في مصر والشرق. ونعود إلى صحيفة البلاغ فنقول: إن من السهل علينا أن نتصور الخصومة التي نشأت بينها وبين صحيفة "السياسة" في ذلك الوقت. وقد كانت خصومة عنيفة كل العنف بين صحيفتين كبيرتين بمعسكرين عظيمين، هما المعسكر الذي تمثله السياسية صحيفة الأقلية، والمعسكر الذي تمثله "البلاغ" صحيفة الأغلبية. ومن أجل هذا كان طبيعياً أن يصبح أسلوب الأخيرة، وهي: "البلاغ" من الخشونة والتجريح والاعتداء بالدرجة التيتلاء مقوتها؛ وتتفق وسطوتها في المجال الشعبي. أما أسلوب الصحيفة الأولى– وهي السياسة– فكان أدنى إلى العفة والنزاهة؛ لأنها تعبر عن الأقلية؛ ولأن أصحابها كانوا حريصين على أن يظهروا أما ما لجمهور بمظهر السمو في النقد والزهد في المهاترة. وصاحب "البلاغ"– وهو الأستاذ عبد القادر حمزة– شاب من الأذكياء، تخرج في كلية الحقوق سنة ١٩٠٣، وكان كالأستاذ أمين الرافعي– يكتب لبعض الصحف وهو طالب في الكلية. ومن تلك الصحف التي كان يكتب لها صحيفة "الجريدة"، وعن طريق هذه الأخيرة تعرف بالأستاذ أحمد لطفي السيد، وقدر شحه هذا الأستاذ ليكون رئيساً لتحرير صحيفة "الأهالي" التي صدرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٩١٠. ثم انتقلت صحيفة "الأهالي" من الإسكندرية إلى القاهرة، وذلك في سنة ١٩٢١، والحركة الوطنية في أوجها. ومنذ يومئذ مالت "الأهالى" من تلقاء نفسها إلى الدفاع عن سعد زغلول، وتعرضت في سبيل ذلك للتعطيل تلو التعطيل، مما اضطر الأستاذ عبد القادر حمزة في النهاية إلى تركها والكتابة في صحيفة

"المحروسة". وبقي يكتب فيها إلى أن تنبهت لها الحكومة وعطلتها هي الأخرى، فلم يجد عبد القادر حمزة أمامه إلا طريقاً واحداً يسد به نهمه الشديد للصحافة.

وهذا الطريق هو إصدار المنشورات الحرة بين حين وآخر– لا لشيء إلا لأن هذه المنشورات لا تخضع للرقابة. ومع هذا وذاك فلم تمكنه الحكومة من المضي في هذه الطريقة.

وأخيراً استقر رأي الأستاذ حمزة على استئجار صحيفة:

"الأفكار" للاستعانة بها في تقوية الحركة الوطنية، والوقوف وراء سعد زغلول في هذه الحركة القوية. واستمر يكتب فيها إلى اليوم السادس عشر من شهر يناير سنة ١٩٢٣، فقد حصل بعدئذ على تصريح بإصدار صحيفة "البلاغ"، التي صدر العدد الأول من أعدادها في الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٣

وفي هذه الصحيفة الأخيرة أخذ المحرر في محاربة الإنجليز، وكان سعد زغلول من أشد الناس إعجاباً بطريقة الأستاذ حمزة في التحرير، وكان لهذا المحرر الكبير عمود يومي في صحيفة "البلاغ" على شكل العصا، حقق له جميع الخصائص الفنية التي لهذا النوع من أنواع التحرير الصحفي– وهو العمود: ومن هذه الخصائص أن يشغل حيزاً معيناً ويتخذ عنواناً معيناً، ويحمل توقيعا معينا.

غير أن الإنجليز لم يطيقوا صبراً على بقاء هذه الصحيفة الوطنية الصريحة، فعملوا على تعطيلها، وقبضوا على محررها، واعتقلوه في السادس من شهر مارس سنة ١٩٢٣، ثم أفرجوا عنه وعن صحيفته فعادت إلى الظهور في الثامن عشر من شهر يونيه من نفس السنة.

وكما كانت هناك صحيفة باسم: "السياسة الأسبوعية" فكذلك حرص الأستاذ عبد القادر حمزة على أن يكون هناك ما يسمى "البلاغ الأسبوعي" وفيه عنى الرجل بماعنى به الدكتور حسين هيكل من تسجيل دقيق للحركة الأدبية، وعرض لمشكلات النشاط الفكري والفني. ومن هنا يجب أن ننظر إلى "البلاغ الأسبوعية" نظرتنا إلى "السياسة الأسبوعية" من حيث أنهما قادتا الحركة الفكرية، وكان لهما الفضل كل الفضل فيما نعمت به مصر من نهضة فكرية، ونهضة سياسية ودستورية واقتصادية واجتماعية شملت فيما شملت هكذل كالحركة النسائية وغيرها من الحركات التي بنت المجتمع المصرى الحديث، وبنت العقل المصري الحديث.

كل ذلك كان نتيجة في الواقع لما نعمت به مصر بعد حصولها على دستور ١٩٢٣، من استقرار نسبي مكنها من أن تخطو خطوات موفقة في المجالين الفكري والأدبي، وجعل لها هذه المكانة التي تزهو بها في العالم العربي إلى اليوم.

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى الاتجاهات الثقافية والأدبية في الصحافة المصرية.. فهنا يتضح أن نشير إشارة سريعة إلى بعض المجلات التي ظهرت في هذا الميدان.

والذي نعلمه مماسبق أن "روضة المدارس" التي صدر ترسميها في السابع عشر من شهر أبريل سنة ١٨٧٠ هي الأم الأولى للمجلات الأدبية في البلاد المصرية.

وكانت بمثابة الأم الثانية لجميع الصحف الأدبية في مصر هي "الجريدة" التي قام بتحريرها أحمد لطفي السيد وتلاميذه. ومنهم: حسين هيكل، وعبدالقادر حمزة، وأحمد حافظ عوض، وطه حسين، وعبدالقادر المازني، وعباس العقاد وغيرهم.

ولقد كانت البنت البكر لهذه الأم الثانية هي صحيفة "السياسة الأسبوعية". وقد رأينا كيف عنيت بالتجديد في الأدب والفكر والنقد جميعا. وكان لهذا التجديد آثاره الطيبة في كل بلاد العالم العربي.

ولما كان للسوريين أكبر الأثر في الصحافة اليومية في مصر، فكذلك كان لهم فضل كبير على الصحافة الأدبية فيها. وبحسبنا أن نشير هنا إلى مجلة "المقتطف" التي صدرت ببيروت سنة ١٨٧٦ ثم انتقلت إلى القاهرة سنة ١٨٨٥، وتعتبر من أقدم المجلات العلمية في الشرق. وأصحابها الدكاترة: يعقوب صروف وشاهين مكاريوس، وفارس نمر.

ثم بحسبنا كذلك أن نشير إلى مجلة "الهلال" التي صدرت في مصر سنة ١٨٩٢ وصاحبها المؤرخ الكبير والعالم المشهور جورجي زيدان. ثم مجلة "البيان" الصادرة في القاهرة سنة ١٨٩٧ لصاحبها إبراهيم اليازجي.

إن الذي لا شك فيه أن لهذه المجلات السورية الكبيرة ديناً في عنق الثقافة المصرية الحديثة، وهي الثقافة التي تعترف بالفضل لهذا العنصر السوري بالذات، وما زالت تعترف به إلى اليوم.

غير أن هذه المجلات الأدبية سورية ومصرية سرعان ما اختفت من الميدان الأدبي جملة، وخلا الجو إلا من المجلة العتيدة التي تشبه صحيفة "الأهرام" في حياتها الطويلة– ونعني بها "الهلال"، وهي الصحيفة التي تؤدي عملها الثقافي والأدبي والفكرة بنجاح كبير إلى اليوم.

خاتمة

رأيت أيها القاريء كيف أن صحافتنا المصرية بدأت رسمية، ثم لم تلبث أن أصبحت شعبية. وذلك منذ ولى البلاد أمير أحاطت به ظروف سيئة هو اسماعيل

كما رأيت أيها القارئ أن الصحافة المصرية مرت في مائة عام بأطوار أربعة كانت في طورها الأول (١٨٢٨-١٨٧٦) تعني عناية كبيرة بأمر الثقافة.

وحين دخلت الصحافة المصرية طورها الثاني (١٨٧٧-١٨٨٢) اتخذت لنفسها صبغة سياسية وربما كان من أسباب ذلك وجود السيد جمال الدين الأفغاني في مصر قبل هذه الفترة بقليل؛ يمهد الأذهان للثورة، ويغرس في التربة المصرية بذور الحرية.

وفي الوقت الذي وجد فيه السيد جمال الدين كانت الحرب الروسية التركية قد بدأت، وفتحت الباب للصحافة الشعبية -كما قلنا- لكي تخوض في السياسة وذلك برضى من الوالي ومن الحكومة.

ثم في الطور الثالث من أطوار الصحافة المصرية (١٨٨٣-١٩١٩) استمر لهذه الصحافة ما كان لها من الصبغة السياسية، وزادت عليها صبغة أخرى تحررية، وظهرت هذه الأخيرة بوضوح في ميدان التفكير السياسي، وميدان التفكير الخلقي والاجتماعي، وميدان

التفكير الأدبي آخر الأمر، وتجلت هذه الصبغة التحررية بوضوح في صحف المؤيد واللواء والجريدة.

ثم في الطور الرابع والأخير من الأطوار التي تحدثنا عنها (١٩١٩–١٩٢٨) وهو الطور الذي جاء نتيجة للثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩، واشتغل المصريون في أثنائها بأمرين هما:

القضية المصرية، والحياة النيابية– كانت الصحافة المصرية مصبوغة بهاتين الصبغتين، كما يظهر لنا ذلك في صحافة أمين الرافعي، ثم في صحافة الوفد المصري، وصحافة الأحرار الدستوريين.

مرت بمصر كل هذه الظروف، وهي وإن كانت ظروفاً سيئة، ومحناً قاسية، إلا أنها عادت على الصحافة المصرية ذاتها بالقوة والمنعة، وبالقدرة الكاملة على المقاومة. وبها اشتدت عضلات الصحافة المصرية في الطورين الثالث والرابع من الأطوار التي أشرت إليها؛ حتى أصبحت صحافة شعبية ممتازة بالمعنى الصحيح، وكانت عنايتها إذ ذاك محصورة (في المقال الصحفي)، أو بعبارة أخرى، كان (فن المقال) هو الأداة الوحيدة في يد الصحافة، أو السلاح الوحيد لها في ميدان الكفاح من أجل الوطن وقضايا الوطن!.

وباختصار بلغت هذه الصحافة المصرية حد النضوج والكمال في الطورين الثالث والرابع من أطوار حياتها التي شرحناها في هذا الكتاب.

أجل بلغت حد النضوج والكمال إذ ذاك؛ لأنها استطاعت في الواقع أن تقوم بكل ما يجب عليها من واجبات نحو الأماني الوطنية، والكرامة الوطنية، حتى لقد لفتت إليها أنظار المؤرخين من العرب والأوروبيين على السواء، وكان من نتيجة ذلك أن ذهب بعض أولئك المؤرخين يطلقون على الحركة التي قامت بها الصحافة في هاتين المرحلتين السابقتين اسم "الطور الصحفي من أطوار الحركة الوطنية". ولذا سنفرد هذه التسمية بهذه الكلمة التي نختتم بها الكتاب:

الطور الصحفي من أطوار الحركة الوطنية:-

نفهم مما سبق أن هذا الطور الصحفي من أطوار الحركة الوطنية إنما يشمل مرحلتين من مراحل الصحافة المصرية؛ هما المرحلة الثالثة، والمرحلة الرابعة.

فمنذ الاحتلال البريطاني –على أقل تقدير –والصحافة المصرية تدرك أن عليها واجبات وطنية لا بد لها من القيام بها مهما كلفها ذلك من جهد أو بذلت في سبيله من تضحية.

كان على الصحافة المصرية (أولاً) أن تدافع عن المصريين في الميدان السياسي، وأن تتصدى لمقاومة المحتلين بكل ما تملك من وسائل، وذلك حتى يختصر المحتلون مدة بقائهم في مصر، ويرحلوا عنها في أقرب وقت.

ثم كان على الصحافة المصرية (ثانياً) أن تدافع عن المصريين في المجال الديني. فقد جاء الاحتلال يبذر بذور التفرقة الدينية بين عنصري الأمة؛ وهما المسلمون والأقباط، ثم لم يكفه ذلك حتى أخذ يرمي الدين الإسلامي– وهو دين الأغلبية الساحقة من أبناء هذه الأمة– بأنه دين لا يتفق مع الحضارة الحديثة وأنه دين كان يصلح للمسلمين منذ أكثر من ألف سنة.

أما الآن فلم يعد يصلح لهم أو يتفق مع زمانهم. ثم لم يكتف الاحتلال بذلك حتى مضى يتهم المسلمين أنفسهم بالتعصب الديني الذي أضر بمصلحة الأجانب المقيمين بمصر.

وفي هذا الميدان من ميادين الكفاح ضد الاستعمار وقفت الصحافة وقفة عنيدة، وأخذت تدافع عن الدين الإسلامي بحرارة شديدة، كما نفت عن المسلمين تهمة التعصب الديني، وأمنت الأجانب المقيمين بمصر على حياتهم وأموالهم، وبلغت الصحافة من كل ذلك ما تريد.

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية ثالثة)– أن تهاجم سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال في مصر– وهي السياسة التي بناها على: تشجيع الكتاتيب، والاكتفاء بها عن التعليم العالي؛ بحجة أن البلاد لم ترق بعد إلى هذا المستوى.

وإذ ذاك وقفت الصحافة المصرية تندد بهذه السياسة وتدعو إلى إنشاء الجامعة المصرية التي تم إنشاؤها بالفعل سنة ١٩٠٨.

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية رابعة) أن تقوم بإصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم. فقد حرص هذا الاحتلال– كما قلنا– على غرس طائفة من الأخلاق التي تساعد على بقائه أطول مدة ممكنة. ومنها أخلاق الخضوع، والاستكانه، والرضى بالأمر الواقع، وعبادة البسالة، وتقديس الأصنام، ورفع الحكام إلى مرتبة الآلهة.

وكان من خير من أبلى بلاء حسنا في ميدان الإصلاح الخلقي الأستاذ أحمد لطفي السيد في (الجريدة).

ثم كان على الصحافة المصرية من (ناحية خامسة) أن تواصل الدفاع عن اللغة العربية، على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية التي يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية وعن الشخصية الأوروبية، وأن تمد هذه اللغة بجميع المقومات التي لا بد منها كي تعيش، وتنمو، وتتقدم، وتضطلع بجميع الواجبات عليها نحو السياسة، والثقافة، والحضارة بمخترعاتها الحديثة ومبتكراتها الفكرية التي لا نهاية لها.

ثم إنه منذ فشل المصريون في سياسة الاعتماد على تركيا، وفشلوا في سياسة الاعتماد على فرنسا، وفشلوا في سياسة الاعتماد على حكامهم من أبناء محمد على لم يبق أمامهم في الواقع غير الاعتماد

على سياسة جديدة؛ هي سياسة إعداد الأمة المصرية من جديد، وتزويدها بأدوات الاستقلال والنهوض. ولكن ماذا أريد بأدوات الاستقلال حينذاك؟

إنها العلم، والخلق، والإيمان بالنفس، والشعور بالكرامة، والإحساس بالشخصية المصرية، والعمل على حمايتها من الآفات التي منيت بها عبر القرون التي كانت مصر في أثنائها خاضعة للسلطان الأجنبي!!

وأخيراً كان على الصحافة المصرية من (ناحية سادسة) أن تحمي ظهر الثورة المصرية الكبرى سنة ١٩١٩، وأن تحافظ ما أمكنها على ما جنته من ثمار هذه الثورة، ومن أعظمها يومئذ ثمرة الإبقاء على وحدة الأمة، والوقوف وراء المفاوض المصري الذي يسعى في الحصول على الاستقلال والحرية، والوقوف كذلك وراء اللجنة التي تضع الدستور المصري الجديد حتى يصبح دستوراً محققاً لمطالب الأمة، ثم الوقوف أخيرا وراء البرلمان المصري نفسه حتى يؤدي واجبه كاملاً نحو الاستقلال والحريات ونحو العمل على إنهاض البلاد من كبوتها السياسية وكبوتها الاقتصادية.

قامت الصحافة المصرية بكل هذه الفروض والواجبات، وذلك في أثناء الفترة التي بدأت بالاحتلال البريطاني وانتهت بظهور الحياة النيابية السليمة، وصمود رجل كأمين الرافعي في الدفاع عنها بكل قوته وذلك

حتى مات في سنة ١٩٢٧، وسبقه إلى الملأ الأعلى قطب الرحى من الحياة المصرية كلها في تلك المرحلة الأخيرة من مراحلها– ونعني به سعد زغلول.

وتلك هي الاسباب التي من أجلها أطلق المؤرخون كما قلنا– اسم (الطور الصحافي من أطوار الحركة الوطنية) على تلك الفترة. ومن هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال (ينج) في كتابه عن مصر، وتشارلز آدمز في كتابه "الإسلام والتجديد". وهما على حق في هذه التسمية.

أما نحن فقد نظرنا إلى تلك الفترة من تاريخ صحافتنا على أنها "العصر الذهبي" لهذه الصحافة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.

وفي ذلك ما يخالف الفكرة العالقة ببعض الأذهان من أن الصحافة المصرية في عهد الاستعمار وبداية الاستقلال كانت صحافة هزيلة، أو موصوفة بالضعف أو الركود أو الإهمال ونحو ذلك من الصفات.

وحسبك أيها القاريء أن توازن بين ما صنعته الشورى لمصر في ذلك الوقت، وما صنعته الصحافة لها في نفس الوقت فستجد أن هذه الأخيرة وهي الصحافة أفادت الوطن أضعاف ما أفادته الشورى.

إن الشرط الوحيد لنجاح الصحافة في مهمتها وقيامها بما يجب عليها في قيادة أمتها إنما هو "الحرية".

فبالحرية تستطيع الصحافة أن تعيش، وبالحرية تستطيع الصحافة أن تبلغ في ميدان الإصلاح كلما تريد.

الفهرس

مقدمة ٤
الطور الأول أو طور النشأة ٦
الصحافة والمطبعة..... ٧
الصحافة الرسمية..... ٨
الوقائع المصرية: ١١
الجريدة العسكرية: ١٦
مجلة روضة المدارس:..... ١٨
الصحافة الشعبية أو شبة الرسمية ٢٠
صحيفة نزهة الأفكار: ٢٥
صحيفة روضة الأخبار: ٢٥
الطور الثاني"طور الشباب"..... ٢٧
جريدة الوطن:..... ٢٨
جريدة الأهرام:..... ٣٠
جريدة مصر القاهرة:..... ٤٣
أولاً– صحيفة التبكيت والتنكيت: ٤٥
صحيفة الطائف: ٤٨
جريدة الأستاذ: ٤٩
صحيفة الأهرام:..... ٥٠
الطور الثالث " طور الكفاح ضد الإحتلال"..... ٥٤

صحيفة الأهرام:..... ٥٨
صحيفة المقطم: ٦٠
صحيفة المؤيد: ٦٢
صحيفة اللواء: ٦٨
حادثة دنشواي: ٧٠
الجريدة:..... ٧١
صحيفة الشعب: ٧٦
الطور الرابع"طور استكمال الحرية والدستور" ٨٠
تمهيد..... ٨١
صحيفة الأخبار: ٨٤
صحيفة السياسة:..... ٨٨
السياسة الأسبوعية: ٩٢
خا تمة..... ١٠١